

مدن في الثورة

الزبداني

سياقات الحراك الثوري في المدينة

الباحث: صبر درويش

مدير المشروع: محمد ديبو

بدعم من:





فهرس

مقدمة

إلى الشمال الغربي من العاصمة دمشق تقع مدينة الزبداني، تتكأ على سفوح جبال لبنان غرباً وتطل على سهل فسيح من جهة الشرق. سهل اشتهر في يوم من الأيام بزراعة التفاح والكرز والدراق وغيرها من المنتوجات الزراعية التي تحظى بأهمية خاصة لدى السوريين. بينما وصل عدد سكان المدينة إلى نحو 30 ألف نسمة، ينتمون إلى مشارب اجتماعية ودينية مختلفة.



تعدّ مدينة الزبداني، واحدة من أكثر المدن السورية ديناميكية، فهي على صعيد سياحي، تعدّ قبلة للسياح في فصلي الصيف، المعروف باعتداله، والشتاء، الذي تكثر به الثلوج. وتتسع فيها الطبقة الوسطى، وترتفع معدلات الدخول، وهو ما انعكس بشكل إيجابي على مستوى التعليم في المدينة، ومعدلات التحصيل الجامعي على وجه الخصوص.

حتى مطلع عام 2011، عاشت الزبداني حياة هادئة، على صعيد سياسي وعلى الصعيد الاقتصادي، رغم ذلك، تعرّض بعض أبنائها وتحديداً أولئك الذين كان لهم مواقف معارضة لنظام الأسد للاعتقال لسنوات طويلة، ومنهم كمال اللبواني، المعارض الليبرالي، ومنهم أيضاً خالد الكويفي الذي اتهم بانتمائه للتيار الجهادي، واعتقل في سجن صيدنايا وأفرج عنه لاحقاً.

في بداية عام 2011، أتيح للعديد من أبناء الزبداني المشاركة في العديد من النشاطات السياسية التي انطلقت في دمشق في الأشهر التي سبقت انطلاق الثورة السورية منتصف آذار عام 2011، فشارك شبان وشابات الزبداني في الاعتصامات التي كانت تقام أمام سفارات البلاد العربية التي اشتعلت فيها الثورات (تونس، ليبيا، اليمن، ومصر)، وعند انطلاق أول مظاهرة شعبية في سورية من سوق الحميدية وسط العاصمة دمشق بتاريخ 15 آذار 2011، كان عدداً من أبناء الزبداني مشاركاً في هذه المظاهرة.

عاشت مدينة الزبداني كلّ مراحل الثورة التي خاضها السوريون، فشهدت أجمل وأقوى المظاهرات في الفترة الممتدّة بين منتصف آذار عام 2011 وحتى منتصف عام 2012؛ وتعرّضت في هذه الأثناء لعدد كبير من حملات الاعتقال التي طالت الناشطين، والتي شملت النساء والرجال وحتى الشبان في مقتبل العمر، وتجاوز عدد معتقلي الزبداني فقط في عام 2011 المائتي معتقل ومعتقلة[1]. كما اختبرت المدينة تجربة "الكفاح المسلح"، فتشكّلت الكتائب العسكرية التابعة للمعارضة منذ حولي نهاية عام 2011، وخاضت مع بداية عام 2012 معارك عنيفة ضد قوات الأسد.

في حوالي منتصف عام 2012، تمكنت قوات المعارضة المسلحة من فرض سيطرتها على مدينة الزبداني، وأتيح مرة أخرى للمدينة أن تختبر تجربة "التحرير"، وعلى إثر هذا "التحرير" نزحت أغلب أسر المدينة عنها، وشكّل من بقي فيها من مدنيين أول مجلس محلي في سوريا، وكانت مهمته إدارة شؤون المدينة، والتفاوض مع نظام الأسد على وقف إطلاق النار في المدينة والعمل على عودة النازحين، وهو شيء لم يحصل. واختبرت المدينة في هذا السياق تجربة "الهدن"، فعقد ناشطو المدينة مجموعة من الهدن مع نظام الأسد، والتي لم يكتب لها الاستمرار أيضاً.

بقي الثوار مسيطرين على مدينة الزبداني حتى حوالي مطلع عام 2016، حيث بدأت معارك عنيفة قادها مسلحو حزب الله اللبناني، إلى جانب قوات الأسد النظامية، وشهدت المدينة في تلك الأثناء

[1]- للاطلاع على أسماء معتقلي مدينة الزبداني في عام 2011، راجع الرابط التالي: http://cutt.us/ivAKW

أعنف المعارك، والتي أدت إلى تهديم شبه كامل للمدينة وسهلها الزراعي، واستشهد العشرات من الضحايا، وتمكنت قوات حزب الله بعد أشهر من المعارك الضارية من التقدّم في أحياء المدينة والسيطرة عليها، بينما بقي بضع عشرات من مقاتلي المعارضة يتمركزون في أحد أحياء المدينة، ويخضعون لحصار شديد، ربما يقود إلى انسحابهم فيما بعد من المدينة وفق اتفاق مع نظام الأسد.

حول هذه المحطات والتفاصيل، تدور قصة مدينة الزبداني، والتي سعت حكاية ما انحكت إلى لملمتها عبر الاستماع إلى شهود من أبناء الزبداني، وممن كانوا مشاركين بأحداث المدينة أو كانوا على مقربة كافية منها، أتاحت لهم نقل ما رؤوه وعايشوه بشكل شخصي. وهي قصة تبقى ناقصة بانتظار استكمالها عبر جهود الآخرين من الباحثين والمهتمين برواية حكايا الضحايا.

الباب الأول: الزمن الجميل... السياقات الأولى للثورة

شغف البدايات

بالقرب من الجامع الأموي وسط العاصمة دمشق، وفي الخامس عشر من شهر آذار من عام 2011، انطلق "أنس برهان"[2] ابن مدينة الزبداني شمال غرب العاصمة دمشق، مع باقي زملائه في أوّل مظاهرة خرجت في سوريا في تلك الأيام. لم يتجاوز عدد المشاركين في تلك المظاهرة بضعة شبان وشابات، وكان من بينهم اثنان على الأقل من مدينة الزبداني، أنس وخاله الدكتور رضوان برهان، أحد أهم الناشطين في مدينة الزبداني، والذي يقبع اليوم في معتقلات نظام الأسد، وينضم إلى قوائم الآلاف من السوريين المفقودين ومجهولي المصير.



انطلق أنس برهان ابن مدينة الزبداني مع باقي زملائه في أول مظاهرة خرجت في سوريا في دمشق.

كانت مظاهرة الخامس عشر من آذار "الحجر" الذي ساهم في "تحريك المياه الراكدة" وأطلق -وبالتزامن مع حراك محافظة درعا- شرارة الثورة السورية، التي انتفضت على إثرها أغلب المدن والبلدات السورية ضد نظام الأسد. تمكّن "أنس" في ذلك الوقت من الفرار من عناصر الأمن والشبيحة، في الوقت الذي اعتقل فيه العديد من المشاركين في تلك المظاهرة. بينما شكّلت هذه الحادثة أوّل تجربة لأنس على صعيد الحراك الميداني، والتي ستكون فاتحة مشاركته في مدينته الزبداني في تحريض أصدقائه وأفراد عائلته على الخروج والمشاركة في المظاهرات التي خرجت عقب الحراك الثوري الذي انطلق في محافظة درعا جنوب البلاد في الثامن عشر من آذار سنة 2011.

في السادس عشر من ذلك التاريخ، نظّم ناشطون سوريون مظاهرة خرجت في وسط العاصمة دمشق للمطالبة بالإفراج عن المعتقلين، وكان من ضمن المشاركين أفراد من عائلة اللبواني، واحدة من عائلات مدينة الزبداني، وكان حينها المعارض كمال اللبواني معتقلاً في سجون الأسد. شاركت عائلة اللبواني في تلك المظاهرة، واعتقلت مجموعة من النساء على إثرها، وهو ما فتح الطريق أمام أنس وباقي زملائه

2- شهادة الناشط أنس برهان، أحد أبناء مدينة الزبداني، تاريخ: شتاء 2016.

لتحريض أهالي الزبداني على الخروج بمظاهرة للمطالبة بإخراج النساء اللواتي اعتقلن في مظاهرة السادس عشر من آذار.

شكّلت الأحداث التي سبقت خروج أوّل مظاهرة في مدينة الزبداني إطاراً جمع من خلاله الناشطين، ووطّد من علاقاتهم، وساهم في تكوين أوّل مجموعة ستكون إحدى أهم البؤر الثورية في المدينة، والتي ستكون فيما بعد على رأس الحراك الشعبي الذي انطلق في الخامس والعشرين من شهر آذار في مدينة الزبداني.

أحياء المدينة

تنقسم مدينة الزبداني إلى منطقتين: "زبداني البلد" ويضم الأحياء القديمة في المدينة. ومنطقة "المحطّة" وهو القسم الحديث من المدينة، والذي تتواجد فيه أغلب مباني مؤسسات الدولة بما فيها مباني أجهزة المخابرات والجمارك.

يضم قسم "البلد" مجموعة من الأحياء التقليدية، وأهمها الحارة الغربية، حارة الجسر، العارة، القساقيس، عين جابر، وحي النابوع. تقطن هذه الأحياء العوائل التقليدية لمدينة الزبداني، كعائلة برهان، وعائلة خيطو، والدالاتي، وغانم.. وغيرها من العوائل الأخرى، وفي هذا القسم من المدينة بالتحديد تركّز الحراك الثوري ضد نظام الأسد، وكانت حارة الجسر والحارة الغربية من أكثر أحياء المدينة نشاطاً وراديكالية.

العديد من العائلات التي تقطن زبداني البلد هي من العوائل التي تمتلك حيازات زراعية في محيط المدينة، وتعدّ من العوائل الميسورة نسبياً، بينما ترتفع نسبة التعليم في أوساط أبناء هذه العائلات، وذلك بخلاف العوائل التي تقطن قسم المحطة من المدينة، والتي يعمل معظمها في قطاع السياحة، وتربطه علاقات وطيدة مع الأجهزة الأمنية المتواجدة في المدينة، حتى أنّه (وبحسب أنس برهان) حدثت العديد من حالات الزواج بين عناصر في الأمن وسيّدات من هذه العوائل.

يعرف عن مدينة الزبداني ارتفاع معدلات التعليم الجامعي فيها، وفي أوساط الطلبة الجامعيين نشأت سجالات حامية على ضوء الأحداث التي اندلعت إثر نشوب ثورات الربيع العربي، في كلّ من تونس ومصر وفيما بعد ليبيا واليمن. ومنذ تلك الفترة، أي الأشهر التي سبقت اندلاع الثورة السورية، ظهرت اصطفافات واسعة بين أوساط الشبان والشابات، بين مؤيّد لهذه الثورات، وبين شاجب لها. وفي الأشهر القليلة التي سبقت الثورة السورية، نشطت مجموعات الطلبة في مدينة الزبداني كما في

أوساط الجامعة، وتكوّنت مجموعات شبابية، وشبكة من العلاقات الجديدة، المبنية على إثر التطوّرات الجديدة التي راحت تشهدها المنطقة.

وفي مدينة الزبداني، تجاوز الأمر دائرة السجالات والنقاشات السياسية، وبرزت مجموعة من الأحداث في المدينة، منها انتشار كتابة الشعارات المناهضة لنظام الأسد على جدران المدينة، وبحسب شهادة عمر دياب[3]، شهدت منطقة "طلعة السيلان" في الزبداني كتابات على الجدران، وانتشار لبعض الشعارات المناهضة للنظام؛ ومنذ حوالي منتصف شهر شباط الذي سبق أحداث آذار من عام 2011، شهد أبناء الزبداني انتشاراً لعناصر تابعة لأجهزة المخابرات في شوارع المدينة، تحديداً بعد منتصف الليل، والذين كثيراً ما أوقفوا الشبان وطلبوا منهم إبراز هوياتهم الشخصية.

من الأحداث التي شهدتها مدينة الزبداني في الأشهر التي سبقت اندلاع الثورة السورية، كانت حادثة اختطاف ومن ثم مقتل طفل من أبناء المدينة، وهو "هاني برهان" ذو الإحدى عشر عاماً[4]. وبحسب رواية عمر، اختطف الطفل أثناء ذهابه إلى المدرسة من قبل جهات مجهولة، وضغطت عائلة الطفل على الأجهزة الحكومية من أجل معرفة الخاطفين وإعادة الطفل، إلا أنّ هاني وجد مقتولاً في إحدى جرود المنطقة، ما أثار موجة من الغضب لدى أهالي مدينة الزبداني، والذين خرجوا في مظاهرات للضغط من أجل معرفة الجناة وإلقاء القبض عليهم.

يشير ما تقدّم، إلى أنّ مدينة الزبداني كانت قد شهدت قبل انطلاق الثورة، مجموعة من الاحتجاجات التي شكلت مدخلاً للاحتجاجات الواسعة التي شهدتها المدينة بعد خروج أوّل مظاهرة في مدينة درعا جنوب البلاد في تاريخ 18-3-2011، ومن ثم خروج أهالي المدينة بأوّل مظاهرة لهم ضد نظام الأسد بتاريخ 25-3-2011.

قوّة الجموع

في الرابع والعشرين من شهر آذار من عام 2011، اجتمع بضعة شبان من مدينة الزبداني، وكان من بينهم أنس وابن عمه عامر برهان والعديد من الشبان الآخرين، للتباحث في إمكانية إخراج أوّل مظاهرة في المدينة.

---

[3]- شهادة الناشط عمر دياب أحد أبناء مدينة الزبداني، وطالب في كلية طب الأسنان في جامعة دمشق، بتاريخ: شتاء 2016.

[4]- ريبورتاج على قناة MBC الفضائية يعرض تفاصيل حول حادثة خطف ومقتل الطفل هاني برهان، تاريخ: 11-3-2011، على الرابط: https://www.youtube.com/watch?v=mUBCIxAGSGs

لم يكن الحديث يجري في تلك الأمسية حول الخروج أو عدم الخروج في مظاهرة ضد نظام الأسد، "وفزعة" لمدينة درعا التي سقط فيها أولى الشهداء بتاريخ 18 آذار من ذلك العام، فقرار الخروج إلى الشارع كان قد اتخذ بشكل جماعي في تلك الأثناء، وكان يجري الحديث بين الشبان حول تنظيم الأمر، وكيفية الانطلاق في المظاهرة، ومن أين؟



انطلاق أول مظاهرة في المدينة من جامع الجسر، شارك فيها حوالي **200** شاب.

اختار الشبان جامع "الجسر" أحد أقدم الجوامع في المدينة، في وسط الزبداني، كنقطة انطلاق المظاهرة، عقب صلاة الظهر من تاريخ 25 آذار، والموافق ليوم الجمعة. وكان الشيخ "عبد الهادي كنعان" إماماً لجامع الجسر في ذلك الحين، والذي استشهد لاحقاً تحت التعذيب في سجون الأسد.

أمام مدخل الجامع الرئيسي، وعقب صلاة الجمعة، تجمهر مجموعة من المصلّين، والذين انضم إليهم العشرات من الشبّان الذين كانوا ينتظرون خارج الجامع. وفجأة صدحت حنجرة أحد الشبان بأوّل هتاف في المدينة، حيث وقف الناشط "وسام برهان" وهتف وسط الجموع بأعلى صوته: "الله أكبر.. حرية"، وردّدت خلفه الجموع: "الله.. سورية.. حرية وبس"، وانطلقوا باتجاه وسط المدينة في أول مظاهرة لهم يخرجون فيها ضد نظام الأسد[5].

بحسب أنس برهان[6]، شارك في المظاهرة الأولى، نحو 200 شاب، وسارت المظاهرة بالقرب من مبنى الجمارك، والذي ينتشر حوله الكثير من عناصر الأمن التابعة لأجهزة المخابرات السورية؛ وأكملت المظاهرة سيرها باتجاه وسط المدينة، وهنا تمّت مهاجمة المتظاهرين من قبل عناصر الأمن والشبيحة، وتمكّنوا من تفريقهم، وإلقاء القبض على بعض الشبان، الذين تعرّضوا للضرب، واقتيدوا إلى أفرع الأمن السورية.

5- استشهد الشاب وسام برهان بتاريخ: 6-1-2013، يمكن متابعة شريط الفيديو الذي يظهر وفاة الشاب على الرابط التالي، https://www.youtube.com/watch?v=SceCsNghYxQ

6- شريط فيديو يظهر خروج أول مظاهرة في مدينة الزبداني، تاريخ النشر: 11-3-2012، على الرابط: https://www.youtube.com/watch?v=QirZk1SgorY

من بين الشبان الذين تمكنت قوى الأمن من إلقاء القبض عليهم، كان أنس برهان، واقتيد بعدها إلى مبنى فرع الأمن السياسي في الزبداني، حيث خاض أوّل تجربة له في الاعتقال. على الفور، انتشر الخبر في أوساط المدينة، وكانت ردّة الفعل العفوية لدى أغلب الناشطين، إعادة تنظيم صفوفهم، والتوّجه نحو مبنى فرع الأمن، والمطالبة بالإفراج عن المعتقلين. وفعلاً، تمكن الناشطون في تلك الأمسية، من الضغط على قيادة فرع الأمن، وإجبارهم على إطلاق سراح الناشطين المعتقلين لديهم، ومن بينهم أنس برهان، وكان ذلك الاختبار الأوّل لقوة الجموع، حيث حُمل المعتقلون على الأكتاف، وهتفت حناجر الشبان بهتافات الحرية، متحدّية ولأوّل مرّة منذ عقود سلطة الأجهزة الأمنية السورية سيئة الصيت.

بعد نجاح الناشطين في الخروج في أوّل مظاهرة لهم بتاريخ 25 آذار من عام 2011، وتمكنهم من الضغط على السلطات في تلك الأثناء من أجل الإفراج عن المعتقلين، تكثّفت نشاطات شبان المدينة، وسعوا إلى تنظيم صفوفهم والخروج في مظاهرة ثانية، إلّا أنّهم لم يتمكّنوا من إخراج مظاهرة في الجمعة التالية الموافقة لتاريخ 1 نيسان 2011، وذلك بسبب كثافة التواجد الأمني في محيط جامع "الجسر"، ولم يتمكّنوا أيضاً من إخراج مظاهرة في الجمعة التي تلتها بتاريخ 8 نيسان 2011، وفي تاريخ 15 نيسان، حاول الناشطون تغيير مكان انطلاق المظاهرة، فاختاروا استبدال جامع الجسر بجامع "النابوع"، إلا أنّ الأجهزة الأمنية مرّة أخرى منعت الجموع من الخروج في مظاهرة. ورغم الضغط الأمني في المدينة، إلا أنّ الناشطين تمكنوا في تلك الأثناء من الاستفادة من ظلمة الليل من أجل تحويل جدران المدينة إلى لوحات غرافتي وشعارات وعبارات مناهضة لنظام الأسد.

في تاريخ 22 نيسان 2011، وبعد عدّة محاولات فاشلة، نجح الناشطون في إخراج مظاهرة حاشدة من وسط المدينة من ساحة الجسر، وهي الساحة التي ستعرف فيما بعد بساحة الحرية، والتي ستشهد أغلب النشاطات الثورية للمدينة. وفي هذا التاريخ على وجه التحديد، صدحت حناجر المتظاهرين في مدينة الزبداني في شعار إسقاط النظام لأوّل مرّة، وكانت اللافتات القماشية والكرتونية تزيّن سواعد الحشود، والتي كان يقوم الناشط ياسر زليخة والناشط خالد خيطو المعروف بأبي عبدو، بكتابتها وتخطيطها داخل أحد محلّات



خرجت مظاهرة من ساحة الجسر وصلّى المتظاهرون صلاة الجماعة في الساحة.

إصلاح السيارات في المدينة، بينما كانت الزبداني شبه خالية من التواجد الأمني في ذلك اليوم[7]. واستمر المتظاهرون في الشارع حتى المساء، حيث قاموا بالصلاة الجماعية في الساحة العامة وعلى مرأى من الأجهزة الأمنية، وبعدها تمّ إنهاء المظاهرة.

الاقتحام الأول للمدينة: أيار 2011

بين الثاني والعشرين من شهر نيسان وحتى الثاني من شهر أيار سنة 2011، عاشت مدينة الزبداني أجمل أيامها في الثورة، ووصل الأمر بالناشطين للخروج في المظاهرات بشكل شبه يومي، وفي أوقات مختلفة من اليوم، نهاراً ومساءً[8]، بينما تزيّنت جدران المدينة بالعشرات من اللوحات والشعارات المعبّرة عن روح الثورة الأوّل. ومع كل يوم، كان الحراك الثوري في المدينة يزداد تنظيماً، وظهرت في تلك الأثناء أوّل تنسيقية في المدينة، وبرز عدد كبير من الإعلاميين وفناني الغرافيتي، وتحوّلت المظاهرات تدريجياً إلى ما يشبه الكرنفال، وهو ما سنناقشه بأكثر تفصيل لاحقاً.



الاقتحام الأول للمدينة، وحملة اعتقالات واسعة وعشوائية.

في الثاني من شهر أيار من عام 2011، وبحسب ما تروي لنا السيدة مريم برهان[9]، وفي الساعات الأولى للصباح، سمع سكان المدينة أصوات إطلاق نار كثيف في الهواء، وكان يصدر من جهة ساحة وسط المدينة.

في تلك الأثناء دخل مدينة الزبداني المئات من الجنود التابعين لقوات الأسد، مدعمين بعناصر تابعة لأفرع المخابرات السورية، ومن ساحة المحطة، توّجه الجنود المدجّجين بالأسلحة، نحو المدينة القديمة، وبدؤوا حملة

7- شريط فيديو يظهر خروج أهالي الزبداني بمظاهرة بتاريخ 22-4-2011، على الرابط: https://www.youtube.com/watch?v=C0qAgZyonzs

8- تسجيلات مختلفة لمظاهرات خرجت في الزبداني بين تاريخي 22 نيسان وحتى بداية شهر أيار عام 2011،
مظاهرة بتاريخ 22-4-2011: https://www.youtube.com/watch?v=raYjwZvuYD8
مظاهرة مسائية بتاريخ 23-4-2011: https://www.youtube.com/watch?v=PjL0zy975a0
مظاهرة مسائية بتاريخ 26-4-2011: https://www.youtube.com/watch?v=XDFY6OkHLuI
مظاهرة في الزبداني بتاريخ 29-4-2011: https://www.youtube.com/watch?v=IvqLcunnAcQ

9- شهادة للسيدة مريم (اسم مستعار) برهان، بتاريخ: صيف 2016.

تمشيط لمنازل المدنيين بحجّة البحث عن أسلحة.

تروي السيدة مريم كيف قام الجنود بكسر أبواب المنازل واقتحامها، وسكانها ما زالوا في غرف نومهم، حيث دخل الجنود إلى المنازل عنوة، وقاموا بالعبث بمحتوياتها وتحطيم ما يأتي في طريقهم من أثاث، ومن ثمّ قام الجنود بإلقاء القبض على العشرات من الشبّان، واقتيادهم إلى المعتقلات. كان الأمر أشبه بحملة اعتقالات واسعة، لا تستهدف قائمة محدّدة من الأسماء، بقدر ما سعت إلى إرهاب المدينة وقمع سكانها، ودفعهم إلى التوقف عن الخروج في مظاهرات مناهضة لنظام الأسد.

وفي الوقت الذي سعت فيه قوات النظام إلى قمع الحراك الشعبي في مدينة الزبداني وترهيب الأهالي، كانت ردّة فعل أهالي الزبداني على العكس ممّا أراد. فخلال ساعات قليلة بعد الانتهاء من حملة الاعتقالات والتفتيش التي شنّتها أجهزة المخابرات، ما كان من أهالي المعتقلين إلا أن كثّفوا اتصالاتهم مع بعضهم، وقرّروا الخروج بمظاهرة، والاعتصام في محيط مقرّ فرع الأمن السياسي.

وبحسب السيدة روضة برهان[10]، لعبت نساء الزبداني دوراً مهماً في ذلك اليوم، فتجمّعت النسوة، من زوجات وأمهات المعتقلين، وقرّرن السير باتجاه فرع الأمن، وانضمّ إلى الجموع العشرات من النساء الأخريات واللواتي لم يكنّ قد اعتقل أيّاً من أفراد أسرهّن، وتضامن المجتمع المحلّي في ذلك الوقت مع أهالي المعتقلين، وانضمّ العشرات من رجال المدينة وشبانها إلى المظاهرة، وسار الجموع في شوارع الزبداني وهم يهتفون من أجل الحرية والإفراج عن المعتقلين[11].

لم تكن تلك هي المشاركة الأولى لنساء المدينة، فنساء مدينة الزبداني كنّ قد شاركن بالحراك الثوري منذ بدايته، إلا أنّ ذلك اليوم، كان علامة فارقة على شجاعة أولئك النسوة، واللواتي سيكون لهنّ دوراً مهمّاً في الحراك الثوري للمدينة.

تنامي الحراك الثوري في المدينة

لم تحقّق حملة الاعتقالات التي شنّها نظام الأسد على مدينة الزبداني في أيار من عام 2011 أهدافها، فلا الناشطون توّقفوا عن الخروج في مظاهرات ضد الأسد، ولا المظاهرات تراجع عددها. وفي الفترة الممتدة بين أواسط أيار وحتى منتصف شهر تموز من عام 2011، سجلت الزبداني خروج أضخم مظاهرات لها على الاطلاق، وعوضاً عن خروج مظاهرة واحدة في يوم الجمعة، بات الناشطون

10- شهادة للسيدة روضة برهان، بتاريخ: شتاء 2016.

11- مظاهرة نسائية للمطالبة بالإفراج عن المعتقلين، بتاريخ: 2-5-2011: https://www.youtube.com/watch?v=bBGZt5pCSa8

يخرجون في أكثر من مظاهرة خلال أيام الأسبوع.



سجلت الزبداني خروج أضخم مظاهرات لها على الإطلاق.

وبحسب شهادة الناشط خالد خيطو[12]، لم تطرأ تغيّرات كبيرة على طبيعة النشاط المدني في هذه المرحلة، الممتدّة بين شهري أيار وتموز من عام 2011، واستمرّ الحراك بوجهه السلمي المدني. ويذكر خالد بأنّه في تلك الأيام، وفي إحدى المظاهرات، رفع أحد الشبان راية سوداء مكتوب عليها عبارة دينية، فاعترض الناشطون على ذلك وأجبروا الشاب على إنزال الراية.

لم تشهد مدينة الزبداني في تلك الأثناء أيّ مواجهات ذات طبيعة عقائدية فيما بين الناشطين، ولعبت جميع الفئات المشكّلة للمجتمع المحلي في الزبداني دورها في الحراك السلمي والمدني. وبالنسبة للشبان المؤسّسين لتنسيقية المدينة، فقد كانوا في غالبيتهم من المتنوّرين والمحسوبين على التيار الديموقراطي، إذا جاز التعبير، وكان لهم دوراً كبيراً في تنظيم الحراك وكتابة اللافتات واختيار العبارات المناسبة، وما إلى ذلك. إلا أنّ ذلك لا يعني اختزال النشاط المدني إلى هذه الفئة فقط، وبحسب خالد، لعب الخطيب الشيخ محمد علي، المعروف بأبي مأمون الدرساني، دوراً مهمّاً في تحريض الشبان على الخروج ضد نظام الأسد، ووقف مع الحراك الثوري للمدينة منذ الأيام الأولى، وبالنسبة لإمام جامع الجسر السيد عبد الهادي كنعان، فقد لعب دوراً وسيطاً بين الناشطين من جهة ونظام الأسد من جهة أخرى، وسعى إلى حلّ مشكلات العديد من الناشطين الذين كان مطلوباً القبض عليهم من قبل الأفرع الأمنية، ورغم ذلك تمّ اعتقال الشيخ كنعان واستشهد فيما بعد تحت التعذيب. بينما بقي الشيخ محمد علي الدرساني إلى جانب ثوّار المدينة حتى في أحلك أيامهم، وترأس بعد تحرير المدينة المجلس المحلي الذي قام الناشطون بتأسيسه في أواسط عام 2012، وهو ما سيجري نقاشه لاحقاً.

ومثلما كان بين أوساط الديموقراطيين واليساريين من وقف إلى جانب نظام الأسد وضد ثورة السوريين، أيضاً كان يوجد في أوساط "الإسلاميين" من لعب هذا الدور أيضاً، كما حدث بالنسبة

12- شهادة حصل عليها الباحث من السيد خالد خيطو، تاريخ: صيف 2016.

لإمام جامع المحطة، المعروف بمحمد برنية من دمشق، والذي وقف علانية مع نظام الأسد، ولعب دوراً مناهضاً لثوار المدينة. إلا أنّ حجم الحشود التي شاركت في مظاهرات المدينة، يشير إلى أنّ غالبية أهالي الزبداني كانوا مجمعين على شعار "إسقاط النظام"، وأنّ من وقف ضد المظاهرات كانوا قلّة من أهالي المدينة. بينما وقفت فئة أخرى موقف الحياد، وذلك لأسباب ساقها ممثلو هذه الفئات كمسيحيي الزبداني، والذين حاولوا المحافظة على مسافة واحدة تفصلهم عن الثوّار وعن نظام الأسد.

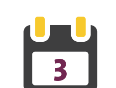
الاقتحام الثاني: تموز 2011

في حوالي منتصف شهر تموز من عام 2011 شهدت مدينة الزبداني أعنف اقتحام لقوات الجيش والمخابرات التابعة لنظام الأسد، حيث استمرّت الحملة لحوالي الثلاثة أيام، وحشد النظام من أجلها نحو 9 آلاف مقاتل، مدججّين بالسلاح، وخلّفت العشرات من المعتقلين وبضع شهداء.

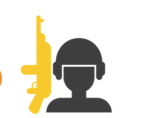
في بداية الأمر، وبحسب ما يروي خالد خيطو، انتشرت قوات الجيش في محيط مدينة الزبداني، وقامت بوضع الحواجز العسكرية على مداخل المدينة. بعد ذلك قام الجيش وعناصر المخابرات بالانتشار في أحياء المدينة وشوارعها الرئيسية، وتمّ نشر العشرات من الحواجز العسكرية في أحياء المدينة، ومن ثمّ قامت قوات المخابرات باقتحام منازل المدنيين، فكسروا أبواب المنازل، وتمّ تخريب ممتلكات الأهالي، وأُلقي القبض على العشرات من الشبان من أعمار مختلفة، وتمّ اقتيادهم فيما بعد إلى أقبية المعتقلات في دمشق.

15 تموز 2011

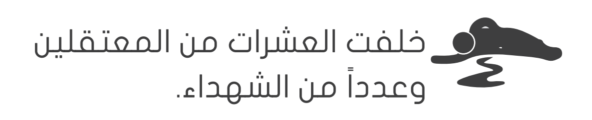
شهدت المدينة أعنف حملة اقتحام لقوات الجيش والمخابرات.



استمرت الحملة حوالي **3** أيام.



9,000 جندي شارك بالحملة.



خلفت العشرات من المعتقلين وعدداً من الشهداء.

وبسبب التوّتر السائد، وتحديداً بين أوساط عناصر الجيش، وقع بضعة شبان من أبناء المدينة جرحى وشهداء على أيدي الجنود المرابطين على الحواجز المحيطة في المدينة، إذ يقول أنس برهان: "كنت أسير مع اثنين من أصدقائي ننوي الهرب من المدينة بعد أن وصلتنا أنباء عن حملة الاعتقالات، عندما فوجئنا بوجود حاجز عسكري على بعد بضعة أمتار منّا، وبسبب ارتباكنا حاولنا العودة وعدم المرور بالقرب من الحاجز، فما كان من الجنود إلا أن أطلقوا النار علينا، فسقط أحد أصدقائي شهيداً بينما أنا تمّ إلقاء القبض عليّ واقتيادي إلى دمشق".

اختلفت هذه الحملة عن سابقاتها في كونها استمرّت لثلاثة أيام، انتشر فيها الجنود في شوارع وأحياء المدينة، وأقاموا وسط الأهالي، وهي حالة لم تكن قد شهدتها أغلب المدن السورية بعد في ذلك التاريخ من عمر الثورة. وبحسب خالد: "في تلك الأيام قام العديد من الأهالي بتقديم الطعام والشراب للجنود المنتشرين في الشوارع، وتمّ التعامل معهم بكل طيبة واحترام. في تلك الأثناء لم يكن ثمّة شرخ بين السوريين المدنيين وقوات الجيش السوري بعد، وحتى ذلك الوقت كان شعار: "الشعب والجيش إيد وحدة" ما يزال يحتفظ بمشروعيته، وغالباً ما كان يجري التفريق بين قوات الجيش من جهة، وقوات المخابرات من جهة ثانية".

وكما دخلت قوات الجيش فجأة مدينة الزبداني، غادرتها وسحبت جميع حواجزها أيضاً بشكل مفاجئ، وعادت الحياة من فورها إلى نسقها الطبيعي، وعاد المتظاهرون ليحتلّوا الساحات، ويهتفوا بكل الشغف الذي اختزنوه في أعماقهم وبصوت واحد: الشعب يريد إسقاط النظام.

الباب الثاني: نهايات العمل السلمي وتشكل المعارضة العسكرية

تعرّضت مدينة الزبداني في الفترة الممتدة بين آذار وحتى نهاية عام 2011 إلى محاولات مختلفة من قبل نظام الأسد من أجل قمع الحراك المدني فيها، ومنع الناشطين من الخروج في مظاهرات مناهضة لنظام الأسد، وتكرّرت حملات المداهمة والاعتقال لأكثر من مرّة، وكانت آخر حملة اعتقالات شهدتها المدينة في تاريخ تشرين من عام 2011، ولم تكن تختلف عن حملات الاقتحام السابقة والتي ورد ذكرها أعلاه.

وعلى الرغم من أنّ النشاط الثوري في المدينة كان قد تراجع نسبياً في الثلث الأخير من عام 2011 بسبب جملة الضغوطات الأمنية التي مارستها الأجهزة المخابراتية على الناشطين وسكان المدينة من موظفين في مؤسسات الدولة وغيرهم، إلا أنّ المدينة بقيت محافظة على دورها في الثورة السورية، واستمرت المظاهرات في الخروج فيها على الرغم من تراجع أعداد المشاركين في هذه المرحلة التي يجري نقاشها، أي الثلث الأخير من عام 2011.

بسبب كلّ هذا، وبسبب فشل أجهزة مخابرات نظام الأسد في احتواء المدينة وقمع النشاط الثوري فيها، تمّ اتخاذ قرار مع بداية عام 2012 بقصف المدينة بالأسلحة الثقيلة، بعد سحب الحواجز والجنود من داخلها، وانتشارهم في الجبال والتلال المحيطة بها، ومن ثمّ اعتماد استراتيجية القصف والحصار، وهو ما حوّل مدينة الزبداني إلى جبهة قتال عنيفة، أفضت العمليات العسكرية فيها إلى انتهاء العمل السلمي والتحوّل باتجاه العمل المسلح.

إلا أنّ تغيير طريقة النظام في التعامل مع مدينة الزبداني، والذي كان قد تغيّر من سياسة الاقتحام والاعتقال إلى سياسة القصف والتدمير، أتى نتيجة عوامل مختلفة، منها ما يشير إليه الناشط خالد خيطو، إذ قام بعض مقاتلي المعارضة في الزبداني بتفجير حافلة عسكرية تابعة لقوات النظام السوري، بالقرب من أحد الحواجز الموجودة داخل المدينة. وفي تلك المرحلة أيضاً، يروي الناشط أنس برهان وقوع حادثة أخرى لعبت دوراً في قصف مدينة الزبداني، حيث قام المدعو "مأمون الخطيب" هو ومعه مجموعة من رفاقه بتنفيذ هجوم عسكري على تجمّع تابع لقوات الأسد كان متواجداً بالقرب من "استراحة مجلس الوزراء" الواقعة بين بلدة بلودان والزبداني، واشتبك الشبان مع جنود الأسد وتمكّنوا من قتل عدد منهم، بينما أصيب "مأمون الخطيب" في تلك المعركة إصابة قاتلة استشهد على إثرها

على الفور[13]. وعلى إثر ذلك، قرّر نظام الأسد سحب جنوده من داخل المدينة، والمباشرة في قصفها والتعامل معها كجبهة قتال عسكرية.

الجناح العسكري في الزبداني

لا يوجد معلومات تفصيلية حول المرحلة التي بدأت تتكوّن فيها أولى المجموعات العسكرية في الزبداني، كما لا توجد معلومات وافية حول الدوافع الحقيقية التي دفعت ببعض ناشطي الزبداني إلى حمل السلاح أو من أيّ فئات اجتماعية ينحدرون. ورغم ذلك، قد تلقي بعض الشهادات "الموازبة" التي جمعها مشروع "المدن"، الضوء على تجربة التسليح في مدينة الزبداني، وتكشف عن طبيعة الأفراد الذين قرّروا حمل السلاح وموقعهم الاجتماعي والطبقي داخل مجتمع المدينة.

إلا أنه ينبغي التمييز دائماً، وبشكل جذري، بين الجيل الأول من حملة السلاح، طبيعتهم ومنبتهم الاجتماعي وحتى دوافعهم، والأجيال اللاحقة التي قرّرت فيما بعد حمل السلاح والعمل ضمن إطار التشكيلات العسكرية التي راحت بالتشكّل تدريجياً مع بداية عام 2012. كما لا بد من التمييز بين القادة الأوائل للعمل المسلح، وبين الجيل التالي من القادة العسكريين، وهو تمييز سنرى مدى أهميته في سياق البحث.

في حوالي شهر آب من عام 2011 وبحسب شهادة أنس برهان، بدأ الناشطون يلاحظون وجود بعض الشبان الذين يحملون أنواعاً مختلفة من الأسلحة الفردية (مسدسات وبعض بنادق الصيد) يتواجدون في محيط المظاهرات التي كانت تخرج في المدينة. وكان الأمر في البداية يقتصر على حماية المظاهرات، وهو الهدف الوحيد الذي كان شائعاً في تلك الأثناء لحمل السلاح. ومع الوقت ازداد عدد حملّة السلاح، وتطوّرت أنوا ع الأسلحة التي بحوزتهم، ومع نهاية عام 2011، انتظم الكثير من هؤلاء الشبان في مجموعات مختلفة، ستكون فيما بعد أنوية الكتائب العسكرية التي سيُعلن عن تشكيلها مع النصف الأول من عام 2012.

أوّل مجموعة عسكرية تشكلت في مدينة الزبداني كانت تدعى: "كتيبة شهداء الحق"، وكانت عبارة عن مجموعة صغيرة من الشبّان، تشكلت في نهاية عام 2011، ضمن السياق الذي قدمناه أعلاه، وتمّ

13- شريط فيديو يظهر تشييع جثمان الشهيد مأمون الخطيب، تاريخ النشر: https://www.youtube.com/watch?v=ElEaoxRv-Fo 29-1-2016



كتيبة شهداء الحق	كتيبة "حمزة بن عبد المطلب" و لواء فرسان الحق
أول مجموعة عسكرية تم تشكيلها. تأسست نهاية 2011 على يد محمود رحمة.	نشأت مع بداية عام 2012 وتنتمي إلى ألوية أحرار الشام.

الإعلان عنها في حوالي منتصف عام 2012[14]، حيث أتى تشكيلها في بداية الأمر بهدف حماية المظاهرات، والدفاع عن المدينة. وحتى ذلك الوقت من نهاية عام 2011، اقتصر تسليح الكتيبة على السلاح الخفيف والمتوّسط، والذي كان يمتلكه أفرادها منذ ما قبل اندلاع ثورة السوريين في آذار 2011.

أسّس الكتيبة **محمود رحمة** الملقب بـ "الريّس"، وهو من أبناء الزبداني[15]. وبحسب المعلومات التي تمّ جمعها من شهود من أبناء مدينة الزبداني فضّلوا عدم ذكر أسمائهم، كان "الريّس" يعمل في قطاع التهريب قبل اندلاع الثورة، فيقوم بتهريب الآليات الثقيلة (تركسات) من لبنان إلى سوريا وأشياء أخرى، وكان يمتلك معرضاً لبيع الآليات المستعملة. وحتى تلك الفترة من الثلث الأخير من عام 2011 كان "الريس" يمضي وقته في أغلب الأحيان بين سوريا ولبنان، ولكن عندما قتل أخٌ "الريس" المدعو "سيف الدين رحمة" بكمين نفذته قوات الأسد، عاد "الريس" ليستقر في الزبداني ويباشر رحلة ثأره لمقتل أخيه.

برزت في تلك الأيام مجموعة من الأسماء المعروفة من قبل المجتمع المحلّي في الزبداني، وبالتدقيق في قسم كبير منها، سنلاحظ أنّ حمل السلاح اقتصر في بداياته على شريحة اجتماعية محدّدة، حيث أشارت الملاحظة، إلى أنّ من حمل السلاح كان بطبيعة الحال ممن يملكونه أصلاً، وفي سوريا عموماً يقتصر امتلاك السلاح على فئات محدّدة وضيّقة من المجتمع السوري، مثل من يعمل بالتهريب، ومن يعمل في الأصقاع في رعي الماشية، ومن لديه حيازة أرض زراعية بعيدة نسبياً عن المدينة.. إلخ.

14- شريط فيديو يظهر الاعلان عن تأسيس كتيبة "شهداء الحق" تاريخ النشر: 14-6-2012، على الرابط: https://www.youtube.com/watch?v=oqI9aT4gIaA

15- بعض المعلومات في هذه الفقرة تم أخذها من لقاء صحفي أجرته الصحفية سيرين بكر مع محمود رحمة، قائد كتيبة "شهداء الحق"، ونشر على مجلة "أوكسجين" بتاريخ: سبتمبر 2012، الحوار موجود على هذا الرابط:

http://arshefzabadanioxygen.blogspot.de/p/blog-page_781.html

وإذا ما دقّقنا في بعض الأسماء التي سارعت إلى الانضمام إلى المجموعات الأولى التي حملت السلاح من أجل حماية المظاهرات، سنلاحظ أنّ أغلبهم ممن يتقاسمون مع "الريّس" نمط النشاط الاقتصادي (التهريب) والمنبت الاجتماعي (في غالبيتهم غير متعلّمين، ويعملون إضافة إلى التهريب بقطاعات مختلفة من التجارة والحرف (كهربائي سيارات، في قطاع البناء.. إلخ"). طبعاً لا ينفي ذلك وجود بعض المتعلّمين في أوساط حملة السلاح الأوائل، مثل المدعو "خالد الكويفي" وهو أحد أبرز قادة الجناح المسلّح في تلك الحقبة، وكان مهندساً زراعياً، والذي سيجري ذكره بأكثر تفصيل في سياق البحث.

أفرز قرار حمل السلاح مجموعة من الديناميكيات، والتي ستؤثر على مجمل سيرورات الحراك الثوري في مدينة الزبداني لاحقاً، وسيكون لها كبير الأثر على مستقبل الثورة في المدينة.

قبل قرار حمل السلاح بحجّة حماية المظاهرات، كان المسؤول عن تنظيم الحراك الثوري في المدينة مجموعة مؤلفة من عدد من الشبان والشابات والذين لم يتجاوز عددهم العشرين ناشطاً وناشطة، وكانت شرعية هؤلاء مستمدة من مشروعيتهم الاجتماعية، فأغلب هؤلاء الناشطات والناشطين كنَ وكانوا من الأشخاص المحترمين اجتماعياً، وتنوّعوا بين طلبة جامعيين ومثقفين ومهتمين بالشأن العام وموظفين لدى مؤسسات الدولة، حتى أنّه يمكن القول أنّ معظمهم (ولا نقول جميعهم) كان ينتمي بشكل أو بآخر للطبقة الوسطى. من هذا الموقع بالتحديد كان لمجموعات تنظيم الحراك الثوري الأولى مشروعيتها الاجتماعية والثورية.

بخلاف طبيعة وتركيبة مجموعات العمل السلمي، **اكتسبت المجموعات الأولى التي حملت السلاح مشروعيتها من قوة السلاح الذي حملته بالتحديد**، ومع الوقت باتت هذه المجموعات التي تشكّلت أساساً بحجة حماية المظاهرات، تتقاسم سلطة تنظيم الحراك الثوري مع باقي المجموعات المدنية. ومع الوقت تنامت سلطة هذه المجموعات، وشيئاً فشيئاً بات لها سلطة القرار كاملة، وتمّ استبعاد قسم كبير من ناشطي الحراك السلمي المدني. وبحسب شهادة الناشطة ثورة كردية[16]، منذ الثلث الأخير من عام 2011، بدأ ناشطو الزبداني يشعرون بسلطة حملة السلاح، وتدخلاتهم في آليات النضال المدني، وتذكر "ثورة" إحدى الحوادث، فتقول: في إحدى المظاهرات قام شاب برفع راية

16- شهادة السيدة ثورة كردية، وهي ناشطة من مدينة الزبداني، وزوجة المعتقل الدكتور رضوان برهان، والذي جرى ذكره في المتن، تاريخ: خريف 2016.

شبيهة براية تنظيم القاعدة، مما أثار غضب الكثير من الناشطين، والذين تدخلوا وفرضوا على الشاب إنزال الراية، ونشب خلاف واسع بين الناشطين في ذلك الوقت، وحلّت الأمور بشكل سلمي، إلا أنّ الحادثة لم تكن سوى حادثة تلتها العديد من الحوادث اللاحقة".

وفعلياً ومنذ عام 2012، بدأت التغييرات تطرأ على نوع الشعارات المرفوعة في المظاهرات وطبيعة اللافتات وما تحتويه من دلالات سياسية، وهو ما كان مؤشراً في حينه إلى بدء تحوّل الخطاب السياسي للحراك الثوري في المدينة، من طابعة الديموقراطي المدني الذي انطلق منه بداية الثورة، إلى خطاب إسلاموي راح بالتشدّد تدريجياً حتى وصل إلى المرحلة التي أعلنت فيها "دولة الخلافة" كمطلب رئيسي للمنتفضين. وهي تغييرات ستطرأ على جملة البنى التنظيمية للحراك الثوري.

لم تكن المسألة في ذلك الوقت (الثلث الأخير من عام 2011) تقتصر على التدخل في طبيعة اللافتات المرفوعة في المظاهرات والرايات وطبيعة الشعارات التي كان يهتف بها المتظاهرون، من قبل الجيل الأوّل من قادة العمل العسكري، بل تجاوز الأمر ذلك ليطال تحديد مصير المدينة ذاتها عبر سلسلة من المفاوضات التي بدأها نظام الأسد مع أبناء مدينة الزبداني. وبحسب شهادة أنس برهان حول هذه النقطة، يقول: "حاول آصف شوكت التفاوض مع ناشطي الزبداني، وكان التفاوض يدور حول نقاط محدّدة وبسيطة، وهي: أن يتم إخلاء مدينة الزبداني من أيّ مظاهر مسلّحة، مقابل التعهّد بعدم تعرّض قوى الأمن لمظاهرات المدينة، وهو أمر كان مقبولاً في تلك الأثناء، ويصب بصالح النشاط الثوري في المدينة ويعتبر مكسباً للثوّار. إلا أنّ هذه المفاوضات لم يكتب لها النجاح، وذلك بسبب مجموعة من الأعمال العسكرية التي قام بها أفراد ينتمون إلى مجموعات العمل المسلح ضد قوات الأسد، وهو ما دفع بهذا الأخير إضافة إلى عوامل أخرى إلى اقتحام مدينة الزبداني، وقصفها في بداية عام 2012".

تشير القراءة المتأنية للتطورات التي شهدتها مدينة الزبداني منذ بداية عام 2012، إلى أنّ قرار تحويل المدينة إلى جبهة قتال، أتى "بتناغم" ضمني وغير مباشر، بين مجموعات العمل المسلّح من جهة، ونظام الأسد من جهة ثانية، والذي نجح هذا الأخير في نقل الصراع في مدينة الزبداني إلى المكان الذي يحسن اللعب فيه، وهو المجال العسكري، الذي يكتسب فيه تميّزه، في الوقت الذي خسر فيه أبناء مدينة الزبداني قدرتهم على مواصلة العمل السلمي، وهو ما أدى بطبيعة الحال إلى استبعاد أغلب الناشطين من الأجيال الأولى للحراك الثوري، بينما انضمّ آخرون إلى الكتائب العسكرية التي أعلن

عن تأسيسها منذ الربع الثاني من عام 2012، لتغلق بذلك مرحلة العمل السلمي في مدينة الزبداني، وتبدأ مرحلة الصراع العسكري.

حتى حلول الربع الأول من عام 2012، كان نظام الأسد قد تمكّن من تصفية أسماء كثيرة من قادة الحراك المسلّح الأوائل، وعلى رأسهم خالد الكويفي، وهو ما أدى إلى بروز جيل جديد من القادة العسكريين يختلف إلى حد كبير عن الجيل السابق، إن كان على صعيد المنبت الاجتماعي أو على صعيد الخطاب الذي تبنّاه، وأسّس للمرحلة التالية من عمر الحراك الثوري في المدينة.

من أبرز التشكيلات العسكرية التي نشأت مع بداية عام 2012 كانت كتيبة "حمزة بن عبد المطلب" ولواء "فرسان الحق"، وكلاهما كان ينتمي إلى ألوية أحرار الشام الجهادية، والتي كانت مشكّلة حديثاً في ذلك الوقت، بينما من أشهر الأسماء التي برزت في تلك المرحلة، كان غياث كنعان ومحمد عدنان زيتون المعروف "بأبي عدنان" أحد أهم القادة العسكريين في تلك المرحلة، والذي سيلقب نفسه فيما بعد بـــ "أمير" الزبداني، وغيرهم العديدين.

أبو عدنان زيتون، وهو محمد عدنان زيتون، مواليد عام 1977، تخرج من كلية الهندسة الزراعية، وتابع فيما بعد دراسته في الشريعة. في عام 2006 ألقي القبض عليه من قبل المخابرات السورية، وتمّ وضعه في سجن صيدنايا، وكانت التهمة الموّجهة إليه العمل مع تيارات جهادية معادية للدولة. أفرج عنه لاحقاً وعاد إلى حياته في مدينة الزبداني. ومنذ أن كان في سجن صيدنايا، من الواضح أنّه كان قد بنى شبكة علاقات متينة مع ما سيعرف فيما بعد بقادة حركة أحرار الشام الجهادية، حيث سيكون أمير أحرار الشام في الزبداني وما حولها.

تندرج سيرة "أبو عدنان" في سياق سيرة أغلب قادة الجهاد في سوريا، والذين كان معظمهم معتقلاً في سجن صيدنايا في وقت سابق من عام 2011، وتمّ الافراج عنهم بعد اندلاع ثورة السوريين، وهم الذين ساهموا فور خروجهم من سجن صيدنايا في تشكيل فصائل عسكرية كانت في معظمها تنتمي إلى الفكر الجهادي وتطمح إلى بناء دولة الخلافة، كزهران علوش من مدينة دوما والذي باشر بتشكيل لواء الاسلام، والذي أصبح فيما بعد جيش الإسلام، وزميل علوش حسان عبود، والذي أيضاً عقب الإفراج عنه من سجن صيدنايا سارع إلى تشكيل حركة أحرار الشام الجهادية، وغيرهم العشرات من الجهاديين الذين احتلّوا مشهد الصراع العسكري في سوريا منذ مطلع عام 2012.

شكّل القادة الجدد من العسكريين مجموعة من الكتائب العسكرية المقاتلة، وكان على رأسها ثلاث كتائب أساسية وهي: كتيبة شهداء الحق، والتي جرى ذكرها أعلاه، والتي كانت تنتمي إلى ما اصطلح على تسميته "بالجيش الحر"، وكتيبتين ثانيتين هما: كتيبة حمزة بن عبد المطلب، والتي ضمّت الجيل الجديد من القادة العسكريين، وكتيبة فرسان الحق، واللتين انضمتا لاحقاً لحركة أحرار الشام الجهادية.

معارك بداية عام 2012

بعد الحادثتين اللتين تمّ ذكرهما أعلاه (تفجير السيارة العسكرية التابعة لقوات الأسد، ومهاجمة استراحة مجلس الوزراء)، قرّر نظام الأسد مهاجمة المدينة، فسحب قواته منها، وأعاد انتشارها على التلال المحيطة، وباشر بقصفها بتاريخ كانون ثاني 2012.

في تلك الأيام من بداية عام 2012 نشبت معارك عنيفة بين قوات الأسد المدعمة بالمدرعات العسكرية والأسلحة الثقيلة والآلاف من الجنود، من جهة، ومقاتلي المعارضة واللذين لم يتجاوز عددهم العشرات، والذين لم يكن بحوزتهم سوى الأسلحة الخفيفة وبعض المتفجرات منزلية الصنع، من جهة أخرى. وتمكّن مقاتلو المعارضة في تلك المعارك من صدّ هجوم قوات الأسد ومنعها من اقتحام المدينة، وأكثر من ذلك، نجحوا في تكبيدها خسائر فادحة بالعتاد والأرواح.

وبحسب شهادة أنس برهان، الذي كان متواجداً مع الثوار في تلك الأوقات، يقول: "كان مدهشاً للجميع حجم الخسائر التي وقعت في صفوف قوات الأسد، وكما أعلمني المدعو أبو نديم حج محمود[17]، (والكلام لأنس برهان) سقط بين صفوف قوات الأسد نحو 800 قتيل، ودمرت العديد من العربات العسكرية التابعة لهُ، من بينها تدمير دبابة على الأقل"[18].

إلا أنّ السؤال يبقى حاضراً: كيف تمكن بضعة عشرات من المقاتلين غير المدربين والذين لا يملكون سوى أسلحة خفيفة، من الصمود في وجه قوات عسكرية مدربة ومدججة بالسلاح؟ وأكثر من ذلك كيف تمكنوا من منعهم من دخول المدينة؟

17- "أبو نديم حج محمود" وهو أحد أبناء مدينة الزبداني، وكان ضابط طيار سابق، وضابطاً في المخابرات الجوية سابقاً، وأثناء الثورة كان عضواً في لجنة المصالحة، التي تم تشكيلها من أجل الوساطة بين النظام من جهة، وناشطي الزبداني من جهة أخرى.

18- شريط فيديو يظهر تدمير دبابة تابعة لقوات الأسد في منطقة الزبداني، تاريخ النشر: 17-2-2012، على الرابط: https://www.youtube.com/watch?v=w7FTNEHq-A0

بالاستناد إلى شهادات الناشطين التي حصل عليها الباحث، في تلك الأيام التي سبقت معارك بداية عام 2012، تمكن الثوار من اقتحام مبنى المصرف الزراعي، والذي كان يحوي آلاف الأطنان من الأسمدة الزراعية المختلفة، والتي قام الثوار بمصادرتها. ونجح الشبّان من استخدام تلك الأسمدة من أجل تصنيع العبوات الناسفة والمتفجرات والألغام، ويعود الفضل بذلك للقائد العسكري خالد الكويفي، والذي قام مع باقي رفاقه بتطويق منطقة سهل الزبداني بالألغام والمتفجرات، والتي منعت فعلياً قوات الأسد من التقدّم، وبحسب الشهادات، خسر نظام الأسد أثناء تقدّمه في سهل الزبداني العشرات من العربات العسكرية والجرافات التي انفجرت فيها الألغام، بينما قتل المئات من الجنود في تلك المفخخات.

في تلك المعارك، أظهر الشبّان وعلى رأسهم خالد الكويفي شجاعة كبيرة، وتمكن خالد نفسه من تدمير أوّل دبابة لنظام الأسد في سوريا، مستخدماً عبوة غاز منزلي، تمّ تحويلها إلى عبوة متفجرة تنفجر عن بعد. وألحق ضرراً كبيراً في صفوف قوات الأسد. وفي تاريخ 8-2-2012، استشهد خالد الكويفي[19]، بعد أن قام بعمل بطولي باقتحام دبابة تابعة لقوات النظام بعد أن تمكن من إعطابها، حيث انفجرت فيه القذائف التي كانت بداخلها وقتل من فوره[20].

شكل مقتل الكويفي ضربة قاصمة لثوار الزبداني في ذلك الوقت، وبعد هذه الحادثة ببضعة أيام، تمكنت قوات الأسد من دخول مدينة الزبداني بتاريخ 12-2-2012، إلا أنّ ذلك كان قد تمّ عبر خدعة قام بها نظام الأسد، لا من خلال انتصار عسكري على مقاتلي المعارضة.

من خلال وسطاء (كأبو نديم الذي تمّ ذكره أعلاه) طلب نظام الأسد من ناشطي الزبداني، وقف القتال والسماح لقواته بدخول المدينة، ومن ثمّ قيام إعلامه بتصوير دخول قواته إلى أحياء الزبداني وبثها على الإعلام لإثبات نجاح الجيش من دخول المدينة وطرد المسلحين منها. وعلى الرغم من أنّ هذه الأحداث تشبه ما يجري في أفلام الحركة السينمائية (الأكشن)، إلا أنّ بلدة مضايا المتاخمة لمدينة الزبداني، كانت قد عقدت صفقة شبيهة بذلك مع قوات الأسد قبل أيام قليلة من معارك الزبداني، وكان النظام فعلياً قد دخل البلدة وقام إعلامه بتصوير ذلك، وبعدها انسحبت قواته من المدينة من دون أيّ عملية اعتقال للناشطين.

19- شريط فيديو يظهر استشهاد خالد الكويفي بتاريخ: 8-2-2012، https://www.youtube.com/watch?v=nqYupn9Sxrl

20- تقرير مصور من إعداد تنسيقية الزبداني يظهر جانباً من قصف جنود الأسد لأحياء المدينة، تاريخ النشر 9-2-2012، على الرابط: https://www.youtube.com/watch?v=RoiXGrvpdo8

بناء على ذلك، قبل ناشطو المدينة بدخول قوات الأسد إليها، وقيام إعلامه بالتصوير والبث، ومن ثمّ الانسحاب منها وعودة الأهالي والناشطين إلى منازلهم، والذين كانوا فرّوا منها على إثر المعارك الجارية.

وفعلاً دخلت قوات الأسد ومدرعاته إلى أحياء المدينة، وانتشرت عناصره في شوارعها، ومن ثمّ قام النظام بوضع ست دبابات في ساحة المحطة وسط المدينة، ونشر مزيداً من الحواجز في جميع شوارع المدينة وأحيائها، وقام بتطويق الحارة الغربية، معقل الحراك الثوري في المدينة.

بعد نشر قوات الأسد لجنوده في المدينة، باشرت أجهزة المخابرات بتمشيط الأحياء السكنية، فدخلوا المنازل، منزلاً منزلاً، وبحثوا عن الشبان والناشطين، وألقوا القبض على العشرات منهم، وتمّ اقتيادهم إلى أقبية الاعتقال في العاصمة دمشق، وكان من بين المعتقلين أنس برهان، والذي أمضى حوالي 45 يوماً في فروع الأمن المختلفة، حيث تعرّض للتعذيب كما العشرات من المعتقلين الآخرين، وتمكنت قوات الأسد بذلك من السيطرة على المدينة بالكامل، ووقف العمليات القتالية ضدها، لتعود وتصبح المدينة تحت قبضة النظام.

الكفاح من أجل الحياة

خضعت مدينة الزبداني في ظلّ التحولات الميدانية التي شهدتها مع أواخر عام 2011، إلى حالة حرب وحصار، أدّت فيما أدت إليه إلى نزوح أعداد كبيرة من أهالي المدينة، ومن بين أكثر من ثلاثين ألف نسمة كانوا يقطنون مدينة الزبداني، لم يبق بعد اشتداد المعارك سوى حوالي ثلثهم، بحسب ما أكده لنا خالد خيطو، في معرض حديثه عن تحوّلات المدينة بعد بدء نشوب المعارك.



وبحسب المعلومات التي حصل عليها الباحث، خاض أهالي الزبداني عدّة حالات من النزوح، فبعد معارك بداية عام 2012، نزحت أغلب الأسر، وبعد دخول الجيش إلى المدينة بتاريخ 12 شباط 2012، بدأت الأسر بالعودة إلى منازلها، وبحسب شهادة الناشطة ثورة كردية، عندما عادت الأسر إلى منازلها، كانت المدينة شبه مهدّمة، وآثار المعارك واضحة في الشوارع المحفرة بسبب القذائف، وأجزاء من منازل المدنيين

محطمة ومشرعة محتوياتها على الريح. ورغم ذلك أصرّ القسم الأكبر من أهالي المدينة على العودة ومباشرة حياتهم.

كانت تشكو المدينة في تلك الأوقات من ظروف قاسية، حيث كان الأهالي محرومين لشهرين تقريباً من المياه والكهرباء، وبحسب "ثورة" كان الأهالي في تلك الأوقات العصيبة يذيبون الثلج كي يحصلوا على مياه صالحة للاستخدام، ويعتمدون على بعض الآبار المتواجدة في بعض المنازل القديمة، وكانت المدينة تعاني من شح في جميع السلع بما فيها الأدوية والمحروقات. استمرّت هذه الأوضاع حتى حوالي نهاية شهر نيسان من عام 2012، حيث أدت المناوشات بين مقاتلي المعارضة من جهة، وقوات الأسد من جهة ثانية، إلى انسحاب قوات الأسد من المدينة ومن ثم تطويقها وبدأ القصف عليها من جديد، حيث تمكن مقاتلو المعارضة من إعادة إحكام سيطرتهم على قلب المدينة مرّة أخرى في حلول شهر أيار من عام 2012.

بعد سيطرة المعارضة على مدينة الزبداني، أجبرت العشرات من الأسر على النزوح عن منازلها، وكادت المدينة تخلو من سكانها. وبحسب السيدة "مريم"، والتي بقيت في المدينة مع أسرتها حتى مطلع عام 2014، قام الناشطون الذين اختاروا البقاء في المدينة باتخاذ مجموعة من الإجراءات التي تتعلّق بكيفية إدارة الحياة فيها، وتأمين مستلزمات الأسر التي رزحت في ظلّ الحصار الذي فرض عليهم. تقول مريم: "في بداية الأمر، كان يذهب من كلّ أسرة إحدى النساء اللواتي لا يوجد اسماً لهنّ على حواجز النظام، إلى بلدة مضايا أو بلودان، ويحضرن ما أمكن من مواد غذائية، ويدخلنها إلى المدينة، ولكن فيما بعد منعت حواجز الجيش التابعة لقوات الأسد إدخال أيّ مواد غذائية حتى ولو كانت ربطة خبز واحدة".

بسبب ذلك، أجبرت الأسر على استخدام الطرق الجبلية، وفي غالب الأحيان كانت النساء يذهبن سيراً على أقدامهن إلى القرى المحيطة بالزبداني من أجل الحصول على بعض المواد الغذائية، وبحسب "مريم" كانت الرحلة تستغرق حوالي الثلاث إلى الخمس ساعات مشياً على الأقدام، وخصوصاً في ظروف الثلج والعواصف، ويستغرق الانتظار على الدور للحصول على ربطة خبز حوالي الساعتين إلى ثلاث ساعات، وبعدها تبدأ رحلة العودة إلى المدينة والمحفوفة غالباً بالمخاطر، مخاطر الطبيعة القاسية في تلك المناطق الجبلية، ومخاطر جنود الأسد المتربّصين بأرغفة الخبز وحليب الأطفال.

في مرحلة لاحقة، ومع اشتداد الحصار على المدينة، أجبر المجلس المحلي المشكّل حديثاً في المدينة، والذي سيجري نقاشه لاحقاً، على اعتماد مجموعة من الاستراتيجيات من أجل مواجهة الحصار، فقام

المجلس المحلي بجمع أغلب المواد الغذائية التي تركها سكان المدينة في بيوتهم بعد أن رحلوا عنها، كما قام بجمع الطحين من الأفران والمتاجر، وبعد ذلك تمّ توزيع هذه المواد الغذائية على الأسر والمقاتلين المتبقين في المدينة.

ورغم كلّ هذه الإجراءات، عانت الأسر المتبقية في المدينة أيّما معاناة، من نقص المواد الغذائية الأساسية والأدوية والمحروقات، وبسبب ذلك أجبر الأهالي على طرق باب المهربين، والذين تمكنوا من إدخال بعض المواد الغذائية والمستلزمات الأخرى لأهالي المدينة، ولكن بأسعار باهظة، ووصل سعر ربطتين من الخبز على سبيل المثال وعلبتي سردين إلى نحو 100 دولار، كما تقول السيدة مريم لمدن في الثورة.

زمن الهدن المريرة واستمرار المعارك

منذ حوالي النصف الثاني من عام 2012، تمكنت قوات المعارضة في الزبداني من فرض سيطرتها على كامل المدينة، حيث انسحبت آخر قوات النظام السوري من داخل المدينة، وانسحبت معها جميع الحواجز التي كانت منتشرة في الشوارع والأحياء في وقت مضى، وتمركزت هذه القوات على الجبال والتلال المحيطة بالزبداني، كما أحكمت قوات الأسد قبضتها على أغلب المداخل الرئيسية للمدينة، وخضعت مدينة الزبداني منذ ذلك التاريخ للحصار والقصف المنهج من قبل قوات الأسد.

وحتى لحظة كتابة هذه الورقة، كان مقاتلو الزبداني قد أظهروا شجاعة كبيرة، وإصراراً لا يلين على حماية مدينتهم، ومنع قوات الأسد من دخولها، إلا أنّ المدينة كانت قد اختبرت عدداً من الهدن التي عقدت بين مقاتلي الزبداني من جهة ونظام الأسد من جهة ثانية، وفي أغلب التجارب التي خاضتها المدينة، لم تتعدّى الهدن فيها عقد اتفاقيات هشّة لوقف إطلاق النار، غالباً لم تكن لتصمد سوى لبضعة أيام، وتعود المعارك بعدها لتشعل الجبهات.

وبعد تدخّل قوات حزب الله اللبناني في معارك الزبداني، إلى جانب قوات الأسد، كان واضحاً إصرار هذا الأخير على استعادة سيطرته على ما بات يعرف "بآخر قلاع القلمون السوري". فبعد أن تمكنت قوات ميليشيا حزب الله اللبناني ومعها قوات النظام من إحكام السيطرة على كامل القرى والبلدات السورية الممتدة على طول الحدود السورية اللبنانية، لم يبق سوى مدينة الزبداني على هذا الشريط الحدودي، وهي لذلك شهدت أعنف المعارك، من قبل قوات الأسد وقوات حزب الله اللبناني.

وحتى كتابة هذه الورقة، نجحت قوات الأسد في تقليص المساحات التي تسيطر عليها قوات المعارضة السورية في مدينة الزبداني، ويكاد يكون تواجد مقاتلو الزبداني محصوراً في بعض الأحياء من المدينة، وربما في ضوء الوضع الراهن، تشهد مدينة الزبداني، كما حصل مع بعض المدن القريبة منها كداريا والمعضمية، اتفاق هدنة يضع حداً للمعارك المستمرة منذ نحو أربعة أعوام أو ما يزيد.

وبحسب شهادة عامر برهان[21]، والذي تمكنا من التواصل معه أثناء تواجده في مدينة الزبداني، تبدو المدينة اليوم مهدّمة بالكامل، وتكاد تخلو من السكان سوى من مقاتلي المعارضة، والذين لم يبق منهم سوى بضع عشرات ما زالوا مرابطين في منطقة ضيّقة من مدينة الزبداني، بينما أغلب بساتين المزارعين كانت قد أتلف أجزاء كبيرة منها، وهدمت المنازل، ولم يبق من المدينة سوى الركام. ويخضع ما تبقّى من مقاتلين لحصار شديد من قبل قوات الأسد وبمؤازرة ميليشيا حزب الله اللبناني. يقول عامر لمدن في الثورة: "أسير اليوم في شوارع المدينة ولا أشعر سوى برغبة بالبكاء، فالحرب ووحشية نظام الأسد كانت قد دمّرت كل شيء بما فيها أحلامنا بالانعتاق والحرية، واليوم نحن لا ننتظر شيء سوى حدوث معجزة ما تضع حداً لهذا الجحيم الذي نعيشه منذ سنوات".

21- شهادة للناشط عامر برهان، وهو من أبناء مدينة الزبداني ومن المشاركين الأوائل في الحراك الثوري في المدينة، ويعمل في الوقت الحالي (2016) رئيساً للهيئة الطبية في الزبداني. تاريخ: خريف 2016.

الباب الثالث: عودة إلى الزمن الجميل

شهدت مدينة الزبداني في الفترة الممتدة بين منتصف آذار وحتى نهاية عام 2011، أجمل التعبيرات المدنية للحراك الثوري السلمي، حيث تحولت مظاهرات المدينة مع الوقت إلى كرنفالات احتفالية، صدحت خلالها حناجر الناشطين، وعلت أصوات الحرية ومطالب التغيير. بينما أبدع فنانو المدينة في رسم اللوحات التعبيرية وكتابة اللافتات، وزيّن الناشطون جدران الزبداني بفن الغرافيتي، ذو المدلول الثوري والشعبي.

على صعيد مؤسساتي، نشأ في مدينة الزبداني عدد من "المنظمات" المدنية، منها ذو الطابع الثقافي، ومنها ما هو إعلامي أو سياسي.

أسّست صفحة على الفيسبوك باسم: "تنسيقية الزبداني وما حولها"، ولعبت دوراً مهماً على صعيد إعلامي، كما أسّس الناشطون مجلة منوّعة دعيت "مجلة أوكسجين"، تناولت مواضيع مختلفة تهمّ مجمل السوريين. وغيرها الكثير من النشاطات، وسنركّز على بعضها هنا:

تنسيقية الزبداني وما حولها

تأسست تنسيقية الزبداني في حوالي حزيران من عام 2011، وأتت كتلبية للمتطلبات الإعلامية التي فرضتها ظروف الحراك الثوري في تلك الأثناء[22]. أسّس التنسيقية في بداية الأمر الإعلامي السوري وابن مدينة الزبداني عمر خيطو، ومعه مجموعة من الشبّان والشابات الآخرين. وتمّ توزيع أعباء العمل والمهمّات فيما بينهم، فتولّى بعض الشبان مهمّة تصوير المظاهرات ومجمل النشاطات الثورية في المدينة، بينما تكفّل آخرون بمهمة التواصل مع وسائل الإعلام المختلفة، وكان أنس برهان الذي تمّ اعتماد شهادته في هذا البحث قد نجح في إجراء عدد من المداخلات باللغة الإنكليزية مع بعض وسائل الإعلام. بينما وقعت مهمة إدارة الصفحة على السيدة مريم برهان، والتي أيضاً تمّ الاستماع إلى شهادتها في سياق هذه الورقة.

وبحسب شهادة السيدة "مريم"، قدّم كادر التنسيقية جهوداً كبيرة من أجل إيصال صوت أهالي الزبداني إلى العالم، وبسبب كون أغلب العاملين فيها كانوا إما إعلاميين أو جامعيين، فإنّ الصفحة

22- لتصفح موقع تنسيقية الزبداني على الفيسبوك، راجع الرابط التالي: http://cutt.us/xCNVh

عملت بمهنية عالية، وتمكنت من اكتساب ثقة المتابعين، حيث باتت مع الوقت إحدى المصادر الموثوقة بالنسبة للصحفيين ووسائل الإعلام.

ما تزال صفحة التنسيقية تعمل حتى وقت كتابة هذه الورقة، وتقول "مريم" إنّ استمرارها هو انعكاس لإصرار ما تبقّى من كادر الصفحة على المساهمة بشكل أو بآخر بنقل مجريات الأحداث في المدينة إلى العالم رغم الظروف الغاية في الصعوبة والتعقيد.

المجلس المحلي المدني

تشكّل في مدينة الزبداني أوّل مجلس محلي في سوريا، وأتى تشكيله في بداية عام 2012 بالتزامن مع المعارك التي نشبت في المدينة بين قوات الأسد ومقاتلي الزبداني. وبحسب عامر برهان، أتى تشكيل المجلس المحلي في ذلك الوقت نتيجة الظروف المستجدّة التي عاشتها المدينة في ذلك الوقت، حيث كلّف المجلس وبشكل رئيسي بإدارة التفاوض مع قوات الأسد، وتمثيل ثوار المدينة ومطالبهم.[23]

المجلس المحلي المدني

تشكل بداية 2012 من **9** أعضاء، وأعيد تشكيله بعد منتصف عام 2012.



تم تشكيل مجلس عسكري بقيادة أبو عدنان زيتون.

تشكل المجلس الأوّل للمدينة من حوالي تسعة أعضاء، وكانوا جميعهم ممثلين لمجمل الفعاليات الثورية في المدينة، ومن شخصيات لها احترامها وتقديرها من قبل المجتمع المحلي للزبداني. وبحسب "مريم" تمّ الترشّح من قبل عدد من الناشطين وأبناء المدينة، وفيما بعد تمّ اختيار مجموعة منهم من قبل أهالي المدينة، الذين صوّتوا للأعضاء المنتخبين.

أعيد تشكيل المجلس المحلي فيما بعد، وتحديداً بعد منتصف عام 2012 حيث كانت المدينة قد باتت تحت سيطرة قوى المعارضة، وعيّن الشيخ محمد علي الدرساني المعروف بأبي مأمون رئيساً للمجلس المحلي، بينما قامت التشكيلات العسكرية التي كانت متواجدة في المنطقة بتشكيل مجلس عسكري بقيادة أبو عدنان زيتون، وضمّ ممثلين عن أغلب المجموعات والكتائب العسكرية في الزبداني.

بحسب شهادة عامر برهان، تركزت مهام المجلس المحلي في بداية الأمر على نقطة محدّدة، وهي تفويضه من قبل أهالي المدينة بالتفاوض مع نظام الأسد، ومنحه الصلاحية لتوقيع أيّ اتفاق يصبّ في

[23]- لتصفح موقع المجلس المحلي لمدينة الزبداني على الفيسبوك، راجع الرابط التالي: http://cutt.us/X89B

صالحهم. وفيما بعد، وبعد أن أصبحت الزبداني بالكامل خارج سيطرة قوات الأسد، لعب المجلس دوراً إغاثياً بشكل رئيسي، وقام فيما بعد بتشكيل هيئة أطلق عليها اسم "الجنائية" وهو شيء يشبه المخفر، ومهمته فض النزاعات وحماية الممتلكات، ومحاسبة من يتعدّى على القوانين، إلا أنّ سلطة المجلس لم تكن تتعدّى آخر المدنيين المتبقين في المدينة، بينما لم يكن له سلطة على الكتائب العسكرية، والتي كانت تتبع للمجلس العسكري المشكّل في المدينة.

تجمع ثائرات الزبداني



منذ الأشهر الأولى لانطلاق الثورة السورية تشكّلت مجموعات عمل شبابية، ضمّت في أغلب الأحيان ناشطين وناشطات تربطهم علاقات شخصية، وتجمعهم ثقة متبادلة أتاحت هذا التقارب والعمل المشترك. وفي الزبداني، جمع الموقف المعارض من نظام الأسد، بالإضافة إلى العلاقات الشخصية والعائلية، مجموعة من الناشطات الأوائل في الثورة السورية، وبحسب شهادة "نور برهان"[24] إحدى المؤسّسات "التجمع ثائرات الزبداني"، بدأ العمل في البداية بشكل عفوي ومن دون إطلاق أيّ تسمية، فكنّ يشاركن في فعاليات الثورة كمجموعة عمل من دون أي اسم، وفي حوالي منتصف عام 2011، قرّرن إطلاق اسم "تجمّع ثائرات الزبداني" على مجموعتهن.

وبحسب "نور" تمّ اختيار هذا الاسم ردّاً على تسمية "حرائر" التي درجت في ذلك الوقت، والتي أطلقها ناشطون على النساء السوريات المشاركات في الثورة، وبحسب وجهة نظر "نور"، اعترضت الناشطات على هذه التسمية التي تهدف إلى "تنميط" المرأة وتحديداً الثائرة، ما دفع ناشطات التجمّع إلى التمسّك باسم "ثائرات" عوضاً عن "حرائر"، حيث كلمة "ثائرات" تشير إلى الفعالية الثورية للنساء ودورهن في انتفاضة الشعب السوري، بخلاف كلمة "حرائر" والتي تساهم في تنميط دور المرأة وإظهارها أقل شأناً من الناشطين الرجال.

24- شهادة للسيدة "نور برهان" وهي ناشطة من أبناء مدينة الزبداني، تاريخ: سبتمبر 2016.

لعبت ناشطات التجمّع دوراً محورياً ومهماً في الحراك الثوري في مدينة الزبداني، فشاركن في جميع النشاطات الثورية في المدينة بدون استثناء. خرجن في المظاهرات جنباً إلى جنب مع باقي أهالي المدينة، وعندما شنّت أجهزة المخابرات التابعة لنظام الأسد أوّل حملة اعتقالات في المدينة في أيار من سنة 2011، خرجن إلى الشارع وتوّجهن إلى مبنى فرع الأمن في المدينة واعتصمن هناك مطالبات بالإفراج عن المعتقلين.

رسمن اللوحات المعبّرة، وساهمن في كتابة واختيار العبارات الخاصة بلافتات الثورة، وكنّ في المقدمة على طول الخط، وقدّمن ضريبة باهظة، فاعتقل منهن الكثيرات، وعذبن وانتهكت حقوقهن، ومنهن من استشهدت أو أنّها انضمّت إلى قائمة المفقودين في سوريا. وعلى الرغم من ذلك، تابعن العمل والنشاط.

في نهاية عام 2011، قرّرت ناشطات التجمّع التقدّم خطوة بعملهن، فقرّرن إنشاء مجلة، تكون منبراً حراً للفكر الحر، وحاملاً لمبادئ الثورة، ومتصدّياً لانحرافاتها، بحسب ما تقول "نور". فنشأ مشروع مجلة "أوكسجين"، وهي مجلة نصف شهرية وسيجري نقاشها في مقال خاص. واستمرت المجلة بالعمل بإدارة نساء التجمّع حتى حوالي نهاية عام 2012، وبعدها انسحبت أغلب ناشطات التجمّع من المجلة التي باتت بإدارة السيد رواد علوش، أحد ناشطي مدينة الزبداني.

لم يدفع فشل تجربة مجلة "أوكسجين" ناشطات التجمّع إلى الانكفاء، بل تابعن العمل على ابتكار المشاريع. وفي نهاية عام 2011، كانت ناشطات التجمّع في مقدّمة من دعا إلى "إضراب الكرامة"، وهو إضراب شمل عموم سورية، وكان قد دعا إليه الناشطون السوريون في ذلك الوقت من أجل الضغط على نظام الأسد، والمساهمة في تعميق أزمته الاقتصادية.

في هذه المظاهرة التي خرجت من أجل الدعوة إلى إضراب الكرامة، قامت ناشطات التجمّع بقراءة بيان سياسي أثناء المظاهرة، وشرحن من خلاله أهمية المشاركة في الإضراب، ورسمن العديد من اللوحات الفنية التعبيرية، والتي حملت رموزاً ودلالات ثورية، تتعلّق بقوة العمل السلمي وأهميته.

مع تطوّر الأحداث الثورية في المدينة، ومع نهاية عام 2011، وما استتبعه من نشوب معارك بين مقاتلي المعارضة في ذلك الوقت وقوات الأسد على أكثر من جبهة، في مدينة الزبداني وفي القرى المحيطة بها، ونشوء ظاهرة "النزوح"، تطوّر عمل ناشطات التجمّع، وأصبح أكثر تنظيماً. في ذلك الوقت من نهاية عام 2011، دخل العمل الإغاثي إلى جملة النشاطات التي كانت تقوم بها ناشطات التجمع،

وبحسب السيدة "سيرين بكر"[25] مديرة منظمة "ضمّة"، عمل تجمّع ثائرات الزبداني في الإغاثة، من خلال تأمين مستلزمات العوائل النازحة وأطفالهم، كما ساهم التجمّع في دعم العمل الطبي، فأجرت العديد من ناشطات التجمع دورات تدريبية من أجل إسعاف الجرحى، وساهمن في تأمين قسم كبير من الأدوية والمعدّات، التي كنّ يحصلن عليها من تبرعات من جهات مختلفة. وعملياً لعب تجمّع ثائرات الزبداني في ذلك الوقت دور المجلس المحلي في المدينة، فلهن يعود الفضل في جملة النشاطات المذكورة، وعلى عاتقهن وقعت تلك المسؤوليات الجسيمة، حتى أنّ السيدة سيرين كانت إحدى عضوات المجلس، ومن أبرز الناشطات فيه.

مع ازدياد العنف واشتعال المعارك في تلك الأيام من أواسط عام 2012، توّسع عمل ناشطات التجمع بتوّسع رقعة القتال، فتجاوز نشاطهن حدود مدينة الزبداني باتجاه بعض القرى والبلدات المحيطة بمدينة الزبداني، تحديداً بلدتي مضايا وسرغايا. ومع ارتفاع أعداد النازحين والأسر المنكوبة، واشتداد الحصار على البلدات الثائرة، قرّرت ناشطات التجمّع إنشاء منظمة جديدة انبثقت عن التجمع، وهي منظمة "ضمّة" المهتمة في التعليم والإغاثة والدعم النفسي، وهو ما سنناقشه بأكثر تفصيل في ورقة منفصلة.

خضعت ناشطات التجمّع في سياق تجربتهن لضغوطات ومخاطر مختلفة، وفي المقابل نجحن في تحدي أغلب هذه الصعوبات، ونجحن في الاستمرار بعملهن حتى وقت كتابة هذه الورقة، وهو ما يشير إلى الدور الحاسم للمرأة السورية في ثورة شعبها، بعكس التصوّرات النمطية التي جعلت من المرأة السورية تابعاً وملحقاً بالآخر.

مجلة أوكسجين

تأسست مجلة "أوكسجين" بتاريخ: 16-1-2012، على أيدي مجموعة من الشبّان والشابات من أبناء مدينة الزبداني[26]. وفي حوالي 22-1-2011 صدر العدد الأول من المجلة، ونجح القائمون على المجلة

25- شهادة للسيدة "سيرين بكر" (اسم مستعار)، وهي ناشطة من أبناء الزبداني، تاريخ: سبتمبر 2016.

26- للاطلاع على محتوى مجلة "أوكسجين"، يمكن متابعة الرابط التالي: http://arshefzabadanioxygen.blogspot.de/p/blog-page_781.html



في تلك الأثناء من طباعة هذا العدد وتوزيعه داخل مدينة الزبداني[27]. أسّست المجلة بالتعاون بين ناشطات من تجمع ثائرات الزبداني والناشط رواد علوش أحد أبناء المدينة، والذي اعتقل في شهر تموز عام 2011 على يد قوات الأسد وأفرج عنه بعد بضعة أشهر.

يقول "رواد": "بدأت الفكرة من داخل معتقلات النظام، وبالتحديد داخل فرع الـ 48 حيث كنت أقبع هناك، وتتلاشى لديّ فرص الحياة بعد الظلم والتعذيب الذي تلقيته خلال تلك الفترة. كانت إحدى أساليب التعذيب المتبعة يومياً داخل هذا المعتقل تعتمد على قطع الأكسجين عن المعتقلين عن طريق إيقاف مضخات الهواء التي تدفعه من خلال فتحات في الطوابق العلوية إلى الأقبية التي يتكدّس بداخلها مئات المعتقلين. بعد فترة قاربت الشهر تمّ ترحيلي إلى سجن صيدنايا العسكري، بتهمة "كتابات مناوئة للنظام عبر شبكات التواصل الاجتماعي"، وبدا الحلم المولود صعب المنال حينها، حيث أيقنت إنّها نهاية الحياة كما يشعر جميع المعتقلين الآن. خرجت من سجن صيدنايا بعد ثلاثة أشهر، حاملاً معي ذلك الحلم، متمسكاً بمبادئ ثورتنا العظيمة، باحثاً عن أصدقاء يحملون نفس الفكر ويؤمنون بالقلم. التقيت بعدد من الشبان والشابات الذين أيّدوا الفكرة، وسعينا معاً لتحقيقها، ليبعث أول إصدار من أوكسجين في 22-01-2012"[28].

وبحسب السيدة "نور"، أتى تأسيس المجلة في سياق جملة النشاطات التي كانت تقوم بها ناشطات "تجمّع ثائرات الزبداني"، وفي تلك الأثناء من النصف الثاني من عام 2011، وفي إحدى الاجتماعات التي ضمّت عدداً من ناشطات التجمّع، ومنهن روضة برهان مدرسة الفلسفة، نور برهان، تهاني، سارة

27- للاطلاع على أعداد مجلة أوكسجين السابقة، يرجى مراجعة موقع الارشيف على الويب، على الرابط التالي: http://arshefzabadanioxygen.blogspot.fr/p/blog-page_781.html

28- مقابلة "مكتوبة" أجريت مع السيد رواد علوش بتاريخ أيلول 2016.

علوش، سيرين بكر، ومؤمنة، وغيرهن من الناشطات، جرى النقاش مع رواد علوش حول تأسيس منبر إعلامي حرّ ومستقل، ويحمل روح الثورة ومبادئها، وجرى الاتفاق على إطلاق مجلة نصف شهرية ومطبوعة، يمكن من خلالها التصدّي لبعض الأفكار الظلامية التي كانت قد بدأت بالانتشار في ذلك الوقت، وفي الوقت نفسه تعمل المجلة على تقديم خطاب ديموقراطي يحضّ على العدالة الاجتماعية والحرية لجميع السوريين.

لهذا تميّزت مجلة أوكسجين بسياستها التحريرية، والتي يقول عنها "رواد" بأنّها "ابتعدت في سياستها التحريرية عن الأخبار الآنية، والتزمت بما وراء الخبر من قصص إنسانية حول المهمّشين، كالحياة اليومية للمحاصرين ومشاكل النزوح واللجوء، كما لها اهتمام بالجانب السياسي والجانب الفنّي أيضاً. مبدأ المجلة يتلخص بالصرخات الأولى للثورة السورية التي قضى في سبيلها مئات الشهداء وغيّب آلاف المعتقلين، لذا تعتمد المجلة على ذاكرة الثورة كدستور لها".

على صعيد الخبرات المهنية، تقول السيدة "نور": لم يكن في مجموعتنا أيّ امرأة إعلامية، ولم يكن لدينا الخبرة في العمل الاعلامي، إلا أنّنا اجتهدنا على هذا الصعيد، فأجرت بعض الناشطات دورات تدريبية في العمل الصحفي، واستعنّ بخبرات بعض الناشطين في المجال الإعلامي، ومن ثم فعلياً أطلقنا المجلة، وبتنا نتعلّم العمل من خلال التجربة المباشرة.

وحول العمليات التقنية والطباعة، تقول "نور": كان الناشط "رواد علوش" يمتلك متجراً لبيع أجهزة الكومبيوتر، وعلى عاتقه وقعت مسؤولية تصميم عدد المجلة وطباعتها لاحقاً. وتقاسمت باقي الناشطات مهمات العمل فيما بينهن. منهن من يحرّر المواد، ومنهن من يكتب الافتتاحية، ومنهن من يختار الصور.. إلخ. وحتى النصف الثاني من عام 2012، استمرّت المجلة بالصدور وحتى الطباعة والتوزيع، وتمكّن فريق المجلة في ذلك الوقت في تأمين دعم مالي بسيط من قبل تبرّعات الأفراد وبيع بعض من أعداد المجلة. وبحسب "رواد": "في بداية الأمر كانت الطباعة تتم في أحد المنازل المتطرّفة والبعيدة عن أعين النظام ومراكزه، وتمّ توزيعها بشكل سرّي على منازل المحايدين في مدينة الزبداني ومضايا، وكان للناشطين النصيب الأقل من تلك النسخ، حيث بدأت سياسة التحرير في ذلك الحين بتسليط الضوء على أهداف الثورة ومبادئها وسرد قصص الشهداء والمعتقلين، نافين بذلك ما روّج له النظام عبر إعلامه".

وبعد اشتدّاد المعارك في مدينة الزبداني ومحيطها، بات من الصعب طباعة المجلة ونشرها، فقرّر كادر المجلة الإبقاء على النسخة الالكترونية منها، وإطلاق موقع ويب، بحيث يصبح نشر المجلة فقط إلكترونياً، وهذا ما حصل بالفعل.

مع نهاية عام 2012، ومع دخول موضوع "التمويل" على الخط، حدث خلاف بين ناشطات تجمع ثائرات الزبداني العضوات في كادر المجلة الأوائل من جهة، والسيد رواد علوش من جهة ثانية. وأفضى الخلاف إلى بقاء رواد علوش في المجلة، بينما انسحبت جميع الناشطات المؤسّسات من إدارة موقع المجلة على الويب وعلى الفيسبوك.

منظمة ضمّة للعمل الاغاثي



في حوالي شهر اكتوبر من عام 2013، قرّرت ناشطات "تجمع ثائرات الزبداني" الإعلان عن تأسيس منظمتهن الجديدة باسم "ضمّة"، العاملة في مجال التعليم والإغاثة والدعم النفسي. ويشير الاسم (ضمّة) وبحسب مديرة المنظمة سيرين بكر إلى "الشعور بالتضامن والحنوّ، والطمأنينة، تعني حضن الأم الدافئ، وهي الدلالات التي تهدف المنظمة إلى تحقيقها".

تمسّكت منظمة "ضمة" بمجموعة من المبادئ التي وجهت عملها، ومن أهمها تمسّك المنظمة بالعمل المدني السلمي، وإيمان كادرها بسورية الحرّة المستقلّة، مركزين نشاطهم على الدعم النفسي، عبر محاولة التخفيف من آثار الصراع الدائر في سورية، وما رافقه من عنف على السوريين، وتحديداً على الأطفال والنساء، الضحايا الأكثر هشاشة في هذه الحرب[29].

وضعت منظمة "ضمّة" مجموعة من الأهداف نصب عينها، ومن أهمها المساهمة في بناء السلام في المجتمع السوري، وتعزيز دور المرأة السورية بحكم موقعها المحوري في مستقبل سوريا، والسعي بقدر ما تساعد الظروف من أجل التخفيف من آثار العنف والحرب على السوريين، من خلال الجهود الإغاثية

[29]- للاطلاع على نشاطات منظمة "ضمة"، يرجى مراجعة صفحة المنظمة على الفيسبوك: http://cutt.us/YPOj

والدعم النفسي، كما هدفت المنظمة إلى دعم المشاريع التنموية الصغيرة، بالإضافة إلى دعم العملية التعليمية.

على صعيد عملي، نفذت المنظمة عدد كبير من المشاريع، وبحسب مديرة المنظمة سيرين بكر، افتتحت منظمة "ضمّة" عدد من المدارس والروضات ومعاهد التعليم، وأتى ذلك في سياق دعم المنظمة للعملية التعليمية تحديداً في مدينة الزبداني وتالياً في بلدة مضايا. وبحسب "سيرين"، قامت المنظمة بتدريب مجموعة من أعضائها من خلال المشاركة بدورات تدريبية في الدعم النفسي، وقام هؤلاء المتدربين في ما بعد بمدّ المنظمة بالخبرات اللازمة لعملها.

ضمّت منظمة "ضمّة" نحو 56 كادراً، منهم نحو 15 عضواً من الإداريين، وأغلب العاملين في صفوف المنظمة كانوا من المتطوعين، والذين لا يحصلون سوى على أجور رمزية. وحول موضوع التمويل، تقول "سيرين"، أغلب الدعم المالي الذي حصلت عليه المنظمة كان من قبل منظمات مدنية دولية، ومنظمات حكومية، تدعم مثل هذه النشاطات، وتؤكد سيرين على أنّ الدعم المالي لم يمس باستقلالية منظمة "ضمّة" على الإطلاق، وأنّ غالبية الدعم ذهب للإغاثة ودعم المجتمعات المحلية.

تعمل منظمة "ضمّة" في ظروف في غاية الصعوبة، ليس أولها الحصار المفروض على مناطق عملها، وليس آخرها التهديدات الأمنية التي تواجه أعضائها، ورغم ذلك تستمر ناشطات "ضمّة" بالعمل بشكل يثير الدهشة، ويأملنّ في الاستمرار بعملهن حتى يستعيد المجتمع السوري عافيته، ويعانق حريته.

خاتمة

لا شيء يدعو إلى الحزن أكثر من مدينة خلت من سكانها. ولا شيء أكثر مرارة من رؤية عوائل بشيبها وشبابها ترحل مرغمة عن مدينة ترعرعت فيها أحلامها ومنمنمات حياتها اليومية.

مدينة الزبداني اليوم حالها كحال باقي أخواتها المدن السورية التي خرجت على حكم الطغيان ودفعت ضريبة باهظة من دم أبنائها وأرواح شبابها وشابّاتها الثائرين والثائرات. مدينة محطّمة، لم يسلم فيها شيء من آلة الموت لا الحجر ولا الشجر، يقول آخر من تبقى في المدينة: "نسمع في الليل أصوات المناشر الكهربائية وهي تقطع بأشجار سهلنا، وكأنها تقطع أوردتنا، ونحن لا نستطيع فعل شيء سوى أن نشهد موتنا البطيء". ولم يبقى في المدينة المهدمة سوى نحو مائتي رجل، من المدهش كيف أنّهم مستمرين حتى اليوم في التصدي لواحدة من أكثر آلات القتل دموية: نظام الأسد وحلفائه وعلى رأسهم ميليشيات حزب الله اللبناني.

تبدو مدينة الزبداني اليوم أشبه بالأطلال، كل شيء ركام، وضحايا الموت من سكانها موّزعين في الأصقاع، ولا يبدو من أمل قريب بالعودة إلى المدينة المنكوبة. وإذا كان الشهود من أبناء وبنات المدينة قد رووا للباحث الكثير من التفاصيل التي تخص سياقات الثورة في المدينة، إلا أنّ ذلك لا يعدو كونه غيض من فيض. فمدينة الزبداني ما تزال تضج بالأحداث التي تنتظر من يرويها، ويروي معها حكاية المقهورين عندما حلموا يوماً بالحرية.

منهجية البحث

منذ منتصف مارس آذار عام 2011، والمدن السورية تخضع لديناميات عالية من التغيير والتحولات، والتي نالت من جملة التكوينات الاجتماعية المحلية، وحتى من بيئاتها الجغرافية. وبقدر ما تبدو السيرورات الثورية في المدن السورية المختلفة متشابهة، وتتقاطع في العديد من النقاط والتفاصيل، إلا أنّ الدراسة العيانية لكل مدينة على حدى، تظهر التمايزات والخصوصيات التي تجعل لكل مدينة سورية حكايتها الخاصة بها. وهو أمر من الصعب الكشف عنه من دون الغوص في تفاصيل "الحكاية"، حكاية المدن وسكانها والأحداث الرهيبة التي عصفت بها خلال السنوات الخمس الماضية.

ومن بداية الحراك الثوري في سوريا، واظب نظام الأسد على قمع أي شكل من أشكال الإعلام الحر، ومنع دخول الفرق البحثية والإعلامية إلى سوريا، حتى أنه بات لدى السوريين العشرات من الشهداء الإعلاميين، وهم الشبان الذين سعوا إلى توثيق ما يجري في سوريا، وبثه إلى العالم المتمدن.

أريد لسوريا أن تكون أو أن تستمر في كونها مملكة للصمت، وفي الوقت الذي نجح فيه نظام الأسد في تحقيق ذلك عبر العقود الماضية، إلا أنّه فشل بذلك بعد انفجار ثورة السوريين في عام 2011، وباتت حكاية السوريين في متناول الباحث المجتهد والساعي من أجل إنتاج معرفة بما يجري على الأرض السورية.

يندرج مشروع "مدن في الثورة" في هذا الإطار، إطار محاولة إنتاج معرفة تتسق مع مجريات الأحداث في سوريا عبر السنوات الخمس الماضية، ومن أجل ذلك تم اعتماد أساليب ومنهجيات معرفية مختلفة. بداية تم اختيار مجموعة من المدن المستهدفة بالبحث، وفيما بعد تم وضع مخطط بحثي خاص في كل مدينة، من أجل أن يرسم خطوات العمل. وللحصول على المعلومات حول كل مدينة من هذه المدن تم تشكيل فريق عمل ميداني، تقوم مهمته على جمع المعلومات وتسجيل الشهادات.

المصدر الرئيسي للمعلومات، كان شهادات تمّ الحصول عليها وتسجيلها من قبل ناشطين كانوا مشاركين في الأحداث أو على مقربة كافية منها، وتم فيما بعد تفريغ هذه الشهادات وتبويبها وجعلها صالحة للاستخدام البحثي. والمصدر الثاني للمعلومات كان المراجع المكتبية والالكترونية بما فيها مقاطع الفيديو، والتي تمّ مشاهدة عدد كبير منها وتسجيل الملاحظات، واعتمادها كإحدى المصادر الثانوية. بعد جمع المعلومات عن كل مدينة، تم مقارنة جملة هذه الروايات مع عدد من المصادر، ومن ثم تم اعتماد الرواية التي كانت أقرب إلى إجماع الشهود.

بعد الاستماع إلى الشهادات وتصنيفها، وجمع المراجع بمختلف أشكالها، تم المباشرة في تحرير مادة البحث، والتي اعتمدت بشكل أساسي على المصادر الحصرية التي جمعها الفريق الميداني، بينما أتت المراجع المكتبية والإلكترونية من أجل تدعيم هذه المعلومات، أو لكي تسد ثغرة فيها.

وفي كل الأحوال، لا نستطيع عبر عملنا هذا، الادعاء بالحيادية والموضوعية المطلقة، فالفريق القائم على العمل منحاز منذ البداية إلى ثورة الشعب السوري، وجميع الشهود الذين تم الاستماع إلى شهاداتهم هم من المعارضين الجذريين لنظام الأسد، ورغم ذلك سعينا بقدر ما استطعنا إلى معالجة، ومن ثم عرض ما توصلنا إليه من حقائق بأقصى ما يمكن من موضوعية تفرضها خطوات البحث العلمي.

ويبقى أن نلفت الانتباه إلى أن مشروع "مدن في الثورة" لا يدعي تقديمه للحقيقة كاملة، كما أننا واعون إلى أن جهودنا هي جزء يسير تندرج في سيرورات إنتاج معرفة بالحراك الثوري السوري بشكل عام، سعينا من خلاله إلى محاولة سد ثغرة، ولو طفيفة، في رصد وتوثيق مجريات الأحداث التي تضج بها سوريا عبر السنوات القليلة الماضية.

وإن كان لا بد من توجيه رسالة شكر، فنود أن نقدمها إلى شهودنا الشجعان، والذين لم يبخلوا لا بوقتهم ولا جهدهم في سردهم لساعات طويلة لحكايتهم، وحكاية مدنهم الثائرة ضد الطغيان. لهم ولجميع من ساهم في إنجاح هذا المشروع، نحن مدينون بالشكر.

فريق العمل

صبر درويش

باحث وصحفي سوري، عمل في مجال الصحافة والعمل البحثي، ساهم في إعداد كتابين، "تجربة المدن المحررة" الصادر عن دار الريس 2015، وكتاب "مآسي حلب الثورة المغدورة ورسائل المحاصرين" بالتعاون مع الصحفي والروائي اللبناني محمد أبي سمرا، الصادر عن دار المتوسط 2016.

محمد ديبو

باحث وكاتب سوري، يرأس تحرير موقع "حكاية ما انحكت"، ويعمل محررا في صحيفة العربي الجديد. صدر له: في الشعر (لو يخون الصديق، 2008، منشورات دمشق عاصمة الثقافة العربية)، وفي القصة (خطأ انتخابي، 2008، دار الساقي/بيروت)، وصدر له شهادة عن تجربته في الاعتقال والثورة السورية، بعنوان (كمن يشهد موته، دار بيت المواطن/2014) وقد ترجمت للإيطالية. كما لديه كتب مشتركة مع آخرين، وأبحاث عديدة في مجال الاقتصاد والطائفية والدولة والمجتمع المدني.

مدن في الثورة

منذ منتصف مارس آذار عام 2011 والمدن السورية تخضع لديناميات عالية من التغيّر والتحولات، والتي نالت من جملة التكوينات الاجتماعية المحلية وحتى من بيئاتها الجغرافية. وبقدر ما تبدو السيرورات الثورية في المدن السورية المختلفة متشابهة وتتقاطع في العديد من النقاط والتفاصيل، إلا أن الدراسة العيانية لكل مدينة على حدى، تظهر التمايزات والخصوصيات التي تجعل لكل مدينة سورية حكايتها وتفاصيلها الخاصة، وهو أمر من الصعب الكشف عنه من دون الغوص في تفاصيل الحكاية.

جاء مشروع "مدن في الثورة السورية"، ليروي الحكاية ويجعلها بمتناول الباحث المجتهد والساعي لإنتاج معرفة (بحث، فيلم، إنفوغرافيك، حلقات إذاعية) بما يجري في المدن التي كانت ميدان بحثنا (السلمية، القامشلي، دير الزور، بانياس، درعا، الزبداني): كيف خرجت أول مظاهرة؟ من قام بها؟ وكيف تعامل الأمن معها؟ وكيف تطور الحراك من الداخل حتى وصل ذروته ثم انحساره، ولم انحسر؟ ومتى سقط أول شهيد؟ ومتى تم التفكير بالسلاح، ولم؟ وأية دوافع دفعت الناس لحمله لاحقا؟ ودور العوامل الخارجية؟ وما هي مجموعات المجتمع المدني والكتائب العسكرية التي تشكلت في هذه المدينة، وما هو الدور الذي قام به كل منها؟ وكيف انحسر المكون المدني لصالح الإسلامي في بعض المدن؟ وكيف ولد الإرهاب؟ وكيف حال المدن الآن؟

لتحقيق ما سبق، تم وضع مخطط بحثي خاص لكل مدينة ليرسم خطوات العمل، ثم تم اختيار مجموعة مجتمع مدني موجودة داخل المدينة، وحين تعذر ذلك، تم تشكيل فريق عمل ميداني، مهمتهم الأساس جمع المعلومات وتسجيل الشهادات وتصويرها مع النشطاء الذين كانوا مشاركين في الأحداث أو على مقربة كافية منها، ليتم تفريغ الشهادات وتبويبها، لتكون المصادر الأساسية لعملنا، فيما كان المصدر الثاني المراجع المكتبية والالكترونية بما فيها مقاطع الفيديو، والتي تم مشاهدة عدد كبير منها وتسجيل الملاحظات، واعتمادها كإحدى المصادر الثانوية.

بعد جمع المعلومات عن كل مدينة، تم وضع كل ما سبق بين يدي: (1): الباحث الذي أنتج بحثا علميا معمقا، مكتوبا بصيغة الحكاية، بعد أن قارن الشهادات المجموعة من قبلنا مع عدد من المصادر، ليعتمد الرواية التي كانت أقرب إلى إجماع الشهود.(2) المخرج: الذي أنتج فيلما عن كل مدينة. (3): مجموعة عين التي أنتجت انفوغرافيك يسرد بطريقة رقمية إحصائية أهم الأحداث، ويوثق أغلب

المجموعات المدنية والعسكرية التي تشكلت. (4) الإذاعة: التي أنتجت حلقات إذاعية عن كل مدينة، إضافة إلى الصور والشهادات القادمة من تلك المدن.

في عملنا هذا، لا ندعي الحيادية والموضوعية المطلقة، فالفريق القائم على العمل منحاز منذ البداية إلى الثورة السورية، وجميع الشهود الذين تم الاستماع إليهم من المعارضين لنظام الأسد، ورغم ذلك سعينا بقدر ما استطعنا إلى معالجة، ومن ثم عرض، ما توصلنا إليه من حقائق بأقصى ما يمكن من موضوعية تفرضها خطوات البحث العلمي، دون أن ندعي تقديم الحقيقة كاملة، فنحن جزء من كل، يسعى لسد ثغرة، ولو طفيفة، في رصد وتوثيق مجريات الأحداث التي تضج بها سورية.

ختاما، لابد من توجيه رسالة شكر، إلى شهودنا الشجعان، الذين لم يبخلوا بوقتهم أو جهدهم في سردهم لساعات طويلة لحكايتهم، وحكاية مدنهم الثائرة ضد الطغيان. لهم ولجميع من ساهم في إنجاح هذا المشروع، نحن مدينون بالشكر.

مشروع مدن في الثورة ممول من قبل منحة ابتكار من مؤسسة Canal France International والاتحاد الأوروبي.

حكاية ما انحكت

سيريا أنتولد – حكاية ما انحكت، هو منصة إعلامية تهدف بشكل رئيسي إلى رواية قصص الانتفاضة السورية، عن طريق تسليط الضوء على النشاطات الاستثنائية التي قام بها السوريون منذ بداية الانتفاضة في آذار 2011، حيث يقوم بجمع المعلومات التي تقع ضمن حيّز العصيان المدني، والمقاومة السلمية الإبداعية وتنسيقها، ليكون مرجعاً للعمل المدني في سوريا.

موقع "حكاية ما انحكت" منذ بدايته في عام ٢٠١٣، عمل على تأطير وتنظيم الكم الهائل من المعلومات المتعلقة بالانتفاضة، عوضاً عن أن يكون مجرد موقع ناقل بشكل آلي/ ميكانيكي لما يحدث في سوريا. الموقع يسعى إلى تحويل إبداع الحراك السلمي وصانعيه، من واقعهما الحالي كقصص مهمشة وجانبية، ليكونا في مركز المشهد، ومرتكز الانتفاضة السورية.